الأوضاع الصحية في شمال الجزيرة العربية
من خلال ما كتبه الرحالة شارلز داوتي في كتابه :
"Travels In Arabia Deserta"
"رحلات في الصحراء العربية"

الدكتور عبدالعزيز بن صالح الشبل *

مدخل :

تزخر كتابات الرحالة الغربيين إلى شبه الجزيرة العربية في حقبة التاريخ الحديث بالعديد من الموضوعات الحضارية والنقاط التي تستحق الاهتمام بها، وذلك بإبرازها ودراستها وبيان دورها الفاعل في تشكيل ورسم الصورة الواقعية إلى حد كبير لحياة سكان شبه الجزيرة العربية في حقبة معينة أو حقب من هذا التاريخ . ومن البديهي التنويه بأن كتابات هؤلاء الرحالة مدفوعة بعوامل شتى وتخضع لتوجهات متعددة تحكم أسلوبها وطريقة التحليل والاستنتاج لما تكتب ، كما أن لنا مواقفنا من هذه الكتابات فقد نتفق أو نختلف مع ما جاء فيها ، ولكن مع كل هذا وذاك تبقى مصدراً مهماً وأساسياً لدارسي تاريخ شبه الجزيرة العربية الحديث.

* ماجستير في التاريخ الحديث - قسم التاريخ - جامعة كاليفورنيا - لوس أنجلس - أمريكا عام ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- دكتوراه في التخصص نفسه من الجامعة المذكورة نفسها عام ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .
- يعمل الآن رئيس قسم التطوير الأكاديمي بالكلية التقنية بالدمام - المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني .

الرحالة الإنجليزي شارلز داوتي الذي زار شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر أحد هؤلاء الرحالة الغربيين الذين أشرنا إليهم آنفا ، فقد ترك لنا سجلا لرحلته تلك ،حافلا بالموضوعات المتنوعة والمهمة.

سبق لكاتب هذا البحث نشر بحث باللغة الإنجليزية عن الرحالة شارلز داوتي تناول فيه هذه الشخصية من منظور كونه أحد الرحالة الإنجليز في العهد الفيكتوري أواخر القرن التاسع عشر.

كان الهدف من البحث السابق إبراز دور الرحالة الغربيين في خدمة مصالح القوى الغربية وصراعاتها - بشكل مباشر أو غير مباشر- أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من خلال ما قام به أشخاص من أمثال داوتي وما كتبوه ، مع شيء من التعليق والملاحظات [١] .

وفي الحقيقة يمكن تناول ما قام به و ما كتبه الرحالة شارلز داوتي عن تلك الرحلة من عدة جوانب:

فيمكن تناوله من الناحية السياسية الإستراتيجية إلى ما هنالك مما يدخل في إطار خدمة أهداف (بريطانيا العظمى آنذاك) ومخططاتها في المنطقة . ويمكن تناوله باعتبار كتابه أحد مصادر تاريخ شبه الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويمكن تناوله من ناحية علمية بحتة: آثارية وجغرافية ، باعتبار هاتين الناحيتين هما اختصاص وهدف داوتي الأساس من رحلته بمجيئه إلى مدائن صالح ثم قراره البقاء وارتياد مناطق أخرى للمزيد من الاستكشاف.

كما يمكن أخيراً تناول ما كتبه على أساس أنه رصد لنواح حضارية مهمة أيضاً: مثل الأوضاع الصحية والاقتصادية والاجتماعية وما إليها من معلومات وملاحظات

---

(١) انظر: مجلة التاريخ والمستقبل- العدد الثاني يوليو ٢٠٠٠- كلية الآداب- جامعة المنيا- مصر ، بعنوان:
Travelers of Arabia in the Victorian Era: (Charles M. Doughty) In the late 19th Century, 1876-1878.

تكشف عن نواح مهمة من تاريخ مجتمع شبه الجزيرة في تلك الحقبة ، وهي أمور يتم عادة إغفالها في المصادرالمحلية بشكل عام.

ولعل الجانب الأخير في طريقة تناول كتاب داوتي (أي التركيز على الأوضاع الصحية والاقتصادية والاجتماعية الخ) في نظري هو الذي يزودنا بالكثير من المعلومات والملاحظات والتحليلات والإحصاءات التفصيلية عن تاريخ سكان شبه الجزيرة العربية. تلك المعلومات والملاحظات التي لا نجدها للأسف في معظم إن لم يكن كل المصادر والمراجع المحلية السابقة المعاصرة لكتاب داوتي بالشكل الذي كتب به. يضاف إلى ذلك أسلوب ومنهج الكتابة العلمي فيما تناوله داوتي من حيث تصنيفها إلى أبواب وفصول وأجزاء تقع تحتها جزئيات كثيرة مع التحليل والاستنتاج كما هو معروف في كتابات الغربيين حسب المنهج العلمي بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف معه في الأهداف والمحتويات والنتائج . إضافة إلى ذلك فإن هذا الأسلوب يكشف عن شخصية هذا الرحالة وأفكاره ونظرته للعرب والمسلمين.

ولا شك أن كل هذه الجوانب السابقة وغيرها في كيفية تناول ما كتبه داوتي لكل منها أهمية كبيرة ، وهي بكل تأكيد يكمل بعضها بعضا ، وبما أن البحث الأول الذي سبقت الإشارة إليه قد تناول الجانب السياسي الإستراتيجي ؛ فإن البحث الحالي يتناول الأوضاع الصحية في شمال غرب وشمال شبه الجزيرة العربية أواخر القرن التاسع عشر بهدف إلقاء الضوء على أوضاع مجموعات بدوية وحضرية من سكان تلك المناطق في ناحية معينة تساعد في رسم صورة حضارية واقعية لمجتمع شبه الجزيرة العربية آنذاك . كما ترينا من خلال رصد داوتي لشيء من هذه الأوضاع كيفية تعامل الناس مع جوانب من شئون حياتهم وهذا بالطبع يثري المعرفة التاريخية إثراء يضاف إلى الجوانب السياسية والحربية التي يتم عادة تناولها وتحظى دائماً بوهج التركيز عليها أكثر من غيرها.

وبناء على ما سبق ،سيركز الباحث على مضمون العنوان باعتبار (الناحية الصحية ومهنة التطبيب) هي الجانب الذي "تظاهر" به و"أبرزه" الرحالة شارلز داوتي . كان داوتي

يقدم نفسه للعرب وأمراء المناطق طوال حقبة تجواله على أنه طبيب "حكيم" يعالج الأمراض بهدف أن يكون جواز عبور وقبول له بين العرب ، وليكسب به بعض النقود التي تمول رحلته، أما أهدافه الحقيقية "الآثارية والجغرافية" فلم يكن يكشفها إلا لمن يحتاج إليهم من الأدلاء أو من يثق بهم ممن صاروا أصدقاء له في مناطق تجواله.

بعض النواحي المهمة الأخرى في رصد ودراسة تاريخ سكان تلك المناطق مثل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية . أيضاً من خلال ما كتبه داوتي ، هي موضوع بحث آخر يعتزم الباحث إكماله قريبا إن شاء الله.

بداية لا بد من توضيح سبب حصر الموضوع من الناحية الجغرافية بشمال غرب وشمال شبه الجزيرة العربية في الحقبة المشار إليها. جاء ذلك تمشيا مع مسيرة رحلة شارلز داوتي لشبه الجزيرة العربية حيث اقتصرت على منطقة مدائن صالح وتعرف أيضاً باسم " الحجر" - بكسر الحاء وسكون الجيم- كما ورد في القرآن الكريم ، وتيماء و خيبر في شمال غرب شبه الجزيرة العربية ، ثم اتجه شرقا إلى نجد فزار كلا من حائل والقصيم في شمال شبه الجزيرة العربية.

وقد ناهزت حقبة تجوال شارلز داوتي تلك واحداً وعشرين شهراً غادر بعدها شبه الجزيرة العربية عن طريق الطائف ثم جدة لأسباب سوف يرد ذكرها في ترجمة حياته. وحيث كان في الأيام الأخيرة في حالة خوف على حياته ومريضا أثناء مروره بالطائف وجدة ويريد العودة إلى بلاده بأسرع وقت ، فإنه لم يبق فيها إلا بضعة أيام ولم يكتب عنها في المجال الصحي أو غيره شيئاً ، سوى بعض الملاحظات الجغرافية عن الحجاز [١] .

(١) في الصفحات الأخيرة من الجزء الثاني من كتاب داوتي: (٢/٥٣٩-٥٧٤) كتب عن أيامه الأخيرة في شبه الجزيرة العربية عندما وصل الحجاز ، فتحدث عن مشاكله بعد أن تركته قافلة القصيم المتجهة إلى مكة في منطقة قريبة من حدود الحرم حتى استطاع الوصول إلى الشريف في الطائف وما تلا ذلك من اتجاهه إلى جدة مع اثنين من رجال الشريف ، ثم وصف الطريق إلى جدة وبعض الملاحظات القليلة عن جغرافية الحجاز في الناطق التي مر بها.

تتكون عناصر البحث الرئيسية من إعطاء نبذة عن حياة داوتي ونبذة موجزة عن الظروف السياسية التي زار خلالها الجزيرة العربية ، وكذلك التعريف بكتابه " رحلات في الصحراء العربية " ، ثم التركيز على ما تناوله في كتابه حول الناحية الصحية في مناطق تجواله وامتهانه الطب.

نبذة عن حياة الرحالة شارلز داوتي و مسيرة رحلته :

يود الباحث هنا إعطاء فكرة موجزة عن حياة شارلز داوتي ، وعن مسيرة رحلته حتى يمكن أخذ صورة واضحة عن الموضوع وخلفياته.

ولد شارلز مونتيجيو داوتي في سفولك بإنجلترا في ١٩ أغسطس عام ١٨٤٣م لعائلة أرستقراطية خدم بعض أفرادها في البحرية الملكية البريطانية والبعض الأخر في الكنيسة الأنجليكانية. حاول وهو شاب السير على نهج أفراد أسرته الذين خدموا في البحرية ولكنه رسب في الامتحان الطبي . يذكر المؤرخون لحياته أنه أصيب بالإحباط بعد هذا الفشل وأنه كان لهذا الفشل تأثير عميق في نفسه. اتجه بعد ذلك إلى جامعتي لندن وأكسفورد ودرس الجيولوجيا والجغرافيا.

في الجامعة يبدو أن ميوله الأدبية بدأت تظهر إضافة إلى تفكيره المستمر بإيجاد طريقة يخدم بها أمته البريطانية بعد أن فشل في التحاقه بالبحرية . إضافة إلى ذلك يذكر بأن عائلته الأرستقراطية التي كانت تملك أراضي في منطقة سفولك وسط إنجلترا أصيبت في عام ١٨٦٥م بكارثة مالية . كل هذه العوامل ساهمت في تغيير مسار حياة داوتي ووجهته وجهة علمية أدت به لأن يكون واحداً من أشهر شعراء ورحالة العصر الفيكتوري الإنجليز.

والذي يعنينا هنا فقط هو شهرته من حيث كونه أحد أبرز " رحالة العهد الفيكتوري في أواخر القرن التاسع عشر". كان طالباً جاداً في الجامعة وقد هداه تفكيره لأن يتجه لخدمة بلده عن طريق الاهتمام باللغة الإنجليزية والحفاظ على أصالتها. من هنا بدأت

انطلاقته العلمية ، فقد وجه هذا الاهتمام إلى الحرص على اللغة الإنجليزية القديمة على اعتبار أن اللغة القديمة (الأصيلة في نظره) أنقى وأكثر أصالة من اللغة المعاصرة في عهده، كما أنها (اللغة القديمة) غنية بالمعاني القوية ولم تشبها شوائب التحديث (١) .

إضافة إلى الاهتمام باللغة الإنجليزية القديمة درس داوتي عدداً من اللغات الأوربية والعربية والعبرية ، من ثم إتجه في سبيل خدمة أهدافه إلى الترحال فبدأ جولات في أوربا منذ عام ١٨٧٢م . وفي نهاية عام ١٨٧٤م يمم وجهه نحو الشرق العربي فاتجه إلى مصر وقصد سيناء وزار بعض المواقع التوراتية فيها ومنها انطلق إلى القدس وأجزاء من لبنان ثم إلى البتراء في جنوب الأردن وكان يصحب البدو ويحضر سمرهم في الليالي في الصحراء. سمع في إحدى ليالي السمر من البدو أن هناك نقوشا وكتابات نبطية في مدائن صالح الواقعة في شمال غربي شبه جزيرة العرب في الطريق إلى الحج ، ولفتت هذه المعلومة نظر داوتي المولع بالآثار والنقوش وخاصة أنه قرأ عنها في التوراة فأراد مقارنة ما قرأه بما هو على الطبيعة. منذ تلك الليلة قرر الذهاب إلى مدائن صالح طمعا في أن تكون له أسبقية اكتشاف ونسخ تلك الكتابات وتقديمها للأوربيين قبل غيره كما صرح بذلك في تحديد أهداف الرحلة (٢) .

(١) David. G. Hogarth, The Life of Charles M. Doughty"{London Humphry Milford, 1928}, pp. 1-8.

ونظراً لتكرار استعماله ، سيشار إليه لاحقا ، هكذا :

{Hogarth, Doughty's Life}

(٢) Charles M. Doughty, Travels In Arabia Deserta, {New York, USA, Random House, 1936}, vol. 1, pp. 31-32.

ملاحظة مهمة:

هذه النسخة(طباعة عام ١٩٣٦م) من كتاب داوتي بجزأيه (الأول والثاني) هي المعتمد ة في هذا البحث عند الإشارة إليه.

وحيث أن كتاب داوتي سيستعمل كثيرا في هذا البحث لأنه المصدر الأساس ، فسيشار إليه لاحقا هكذا:

{Doughty, 1/..... or 2/.....}

بدأ التخطيط والاستعداد لهذه الرحلة بالاتجاه مباشرة إلى دمشق وذلك لأخذ إذن بمرافقة قافلة الحج الشامي حيث علم أنه لا يمكنه الذهاب إلى شبه الجزيرة العربية بدون موافقة الوالي العثماني في الشام ، كما أنه حاول الاستعانة بدعم القنصلية البريطانية في دمشق ولكنها كما يذكر أحجمت عن تقديم أي دعم مادي أو معنوي.

إضافة إلى كل هذا ، قام بزيارة خاطفة عن طريق بيروت إلى فينا أقرب مدينة في وسط أوربا يستطيع منها مراسلة الجمعية الجغرافية في لندن وينتظر جواباً سريعاً. وقد كتب للجمعية عن مشروعه وطلب الدعم المادي ، ولكنه علم بعد أيام من شخص صادفه في فينا أن الجمعية في إجازة طويلة ولن يصله ردها قبل عدة أشهر فقفل راجعا إلى دمشق. وأهم ما في هذه الرحلة الخاطفه هو تعرفه ومصاحبته لأحد الأطباء البلغاريين الذي سبق له أن خدم في الدولة العثمانية كما ذكر ذلك داوتي في رسالة إلى صديقه الدكتور هوجارث لاحقا ، وكان لهذه المعرفة دور مفيد لداوتي كما سنرى[١] .

الذي يظهر لي أنه في ظل الإحباط الذي أصابه من عدم وجود أي دعم مادي ، أخذ من هذا الطبيب فكرة امتهان التطبيب خلال رحلته المزمعة خاصة مع وجود ثقافة طبية عامة لديه وحمله لصندوق أدوية وإسعافات ، بدليل اعتزازه بمعرفة ذلك الطبيب باعتبارها المكسب الوحيد من رحلة فينا. كما أنه ذكر لهوجارث في رسالة أخرى أنه يتذكر دائما كلمات الدكتور فون كريمر (الطبيب الذي تعرف عليه) حينما قال له في فينا إنه لاقى معاناة شديدة عند ممارسته لمهنة التطبيب أثناء تجواله في بعض مناطق الدولة العثمانية[٢].

هذه الأمور تشير بوضوح إلى اعتزام داوتي امتهان التطبيب في رحلته التي يصر على المضي فيها دون تردد وحتى بدون دعم أي جهة ، واعتبر فكرة امتهان التطبيب التي استفادها من الطبيب البلغاري أكبر داعم لمشروعه.

(١) Hogarth, Doughty's Life, pp. 28-30.

(٢) Ibid, p. 37.

حينما عاد من فينا كان قد فاته موسم حج عام ١٨٧٥م الذي حرص على مرافقة قافلته ، فقضى السنة التالية في دمشق يتزود من تعلم اللغة العربية حتى موعد خروج القافلة في موسم حج عام ١٨٧٦م ، التي سمح له أخيرا بمرافقتها. كان الإذن له مقصوراً على الذهاب إلى مدائن صالح فقط على ألا يذهب إلى الأماكن المقدسة (المدينة ومكة) وأن يعود مع القافلة حينما تمر بمدائن صالح مرة أخرى في طريقها إلى الشام.

استعد داوتي للرحلة إضافة إلى التزود من معرفة العربية وممارستها بأن لبس لباس البدو وتسمى باسم عربي هو" خليل" ، وهذا الاسم يتميز من وجهة نظر داوتي بأنه اسم توراتي لا يخص المسلمين وحدهم بل هو لقب الرسول إبراهيم عليه السلام(١) . أخذ معه ما يستطيع من الأدوات الطبية والأدوية إذ لم يكن معه من النقود إلا ثلاثة عشر جنيها فقط. حاول للمرة الأخيرة - خلال إقامته في دمشق- الحصول على دعم القنصل البريطاني الذي رغم إعجابه به لم يقدم له شيئاً حتى اعتبره داوتي تركيا أكثر من الأتراك أنفسهم لموقفه هذا بحيث نظر إلى تصرف القنصل على أنه بداية وأساس مشكلاته اللاحقة(٢) . ولذا فقد استقر بصورة نهائية في ذهن داوتي أن يشتغل بالتطبيب والعلاج أثناء رحلته حتى يستطيع إعاشة نفسه إضافة إلى اعتماده على ضيافة العرب التي عرفها في سيناء وجنوب الأردن ، ومنذ ذلك الحين اعتمد على نفسه وارتبط بأمير الحج الشامي ومن سيرافقهم في القافلة وصار يعرف باسم " الحكيم خليل " (٣) .

بدأ داوتي رحلته إلى شبه الجزيرة العربية يوم الأحد الثالث عشر من نوفمبر ١٨٧٦م

---

(١) Ibid, p. 35.

(٢) Thomas J. Assad, The Victorian Travelers, Burton, Blunt, Doughty, {Routledge and Kegan Paul, 1964}, p.114.

(٣) كلمة "حكيم" في لهجة أهل بلاد الشام تعني طبيباً ، وقد شاع استعمال تلك الكلمة مدة قبل أن يشيع استعمال كلمات مثل دكتور وطبيب الحالية.

مع حجاج الشام عندما غادر دمشق[١] . ولما وصلت القافلة إلى مدائن صالح انفصل داوتي عنها وبقي هناك حقبة الحج في حماية الحامية العثمانية الصغيرة التي كانت موجودة في قلعة المنطقة هناك مما أتاح له الفرصة لمسح المنطقة واستكشافها ونسخ الكثير من الكتابات والنقوش النبطية ، في هذه الأثناء كان قد تعرف على بعض البدو الذين ألف صحبتهم واطمأن إليهم.

ولأنه شغوف بالدراسات الآثارية والجغرافية فقد قرر البقاء وعدم مرافقة القافلة العائدة إلى الشام والذهاب إلى مناطق أخرى في شبه الجزيرة العربية. قام بتجهيز ما نسخه وأعطى الأوراق لأحد الحجاج الذي وثق به على أن يسلمها للقنصل البريطاني في دمشق وأوصى بأن ترسل للجمعية الملكية الجغرافية في لندن ، وأرسل كذلك نسخا أخرى لبعض العلماء في فرنسا.

بقي مع الشيخ "زيد" وقبيلته الصغيرة الموجودة في المنطقة وتسمى قبيلة "الفقراء" وهي كما يقول فرع صغير وفقير من فروع قبيلة "هتيم" آنذاك ، إذ كان قد تعرف عليه خلال إقامته حقبة الحج في منطقة مدائن صالح ، وقد قام زيد وأفراد من قبيلته بدور الأدلاء لداوتي في مدائن صالح أثناء بحثه عن الآثار. وحينما أبدى للشيخ زيد رغبته في البقاء وصحبتهم إلى وجهتهم وافق زيد وتكفل بحمايته[٢] .

داوتي في الحقيقة لا يوضح لنا سبب قراره المفاجئ في الانفصال عن قافلة الحج التي تعهد بالرجوع معها ، ثم البقاء متجولا في شبه الجزيرة العربية مع عدم ضمان

---

(١) Doughty, 1/45.

وهذا التاريخ الذي ذكره داوتي نفسه هو يوم مغادرة القافلة منطقة المزيريب وهي نقطة تجمع خارج دمشق تنطلق القوافل منها باتجاه الصحراء ، بينما خروجه الفعلي من مدينة دمشق كان في العاشر من نفس الشهر حسب ما ذكرته بعض المصادر. ولهذا فإن بعض من يؤرخون خروج داوتي في رحلته لشبه الجزيرة العربية يذكرون العاشر من نوفمبر ، والبعض الآخر يذكرون الثالث عشر منه ، فلزم التوضيح.

(٢) Doughty, 1/253-255.

استمرار الحماية من الشيخ زيد وقبيلته (حيث كان يفكر في الاتجاه إلى عدة مناطق خارج نطاق قبيلة الشيخ زيد) ، إضافة إلى ندرة المال لديه.

إنما نجد السبب لدى دكتور هوجارث في كتاب له بعنوان: The Penetration of Arabia" الاختراق لشبه الجزيرة العربية " الذي يذكر بأنه بما أن داوتي كان يرسل ما ينسخه ويرسمه من آثار ونقوش إلى الجمعيات العلمية في بريطانيا وبعض العلماء في فرنسا عن طريق القنصل البريطاني في دمشق منذ أن زار سيناء والبتراء عام ١٨٧٥-١٨٧٦م ، فقد أكسبه ذلك شهرة واسعة فيما بعد لدى المختصين بالدراسات السامية. يقول هوجارث بعد ذلك : " إن داوتي بعد أن زار البتراء في جنوب الأردن وكتب عن بعض الآثار المجهولة فيها ، ثم زار مدائن صالح واكتشف الآثار ونسخ النقوش النبطية (حيث اعتبر نفسه سباقا إلى ذلك) أصابته حمى اكتشاف المزيد من الآثار خاصة وأنه قرأ وسمع عن تيماء وأن فيها حجراً أثريا وخيبرالتي كان لليهود وجود فيها ،لذلك لم يقاوم الرغبة العارمة في البقاء والذهاب إلى تلك الأماكن مهما كلفه ذلك"[١].

ترك داوتي مدائن صالح مع أفراد قبيلة " الفقراء " وصحبهم في ترحالهم شمالا خاصة عندما عرف أن وجهتهم تيماء حيث سمع عن اكتشاف حجر أثري فيها فقرر الاطلاع عليه ،بعد عدة أشهرمن تطوافهم في منطقة تيماء وما حولها ، انحدروا جنوبا إلى منطقة خيبر . بقي معهم يتجول في منطقة خيبر ومناطق الحرة عدة أشهر أخرى ، ثم ترك صاحبه زيد ومن معه من البدو حيث قرر الاتجاه شرقاً إلى إمارة حائل لمقابلة الأمير محمد بن عبد الله بن رشيد أمير شمال نجد آنذاك الذي سمع داوتي عن قوته وسطوته من جماعة البدو الذين كان معهم وممن قابلهم في تيماء وخيبر فقد كان يؤمل في أن يرحب به ويسهل له الاتجاه إلى العراق.

(١) David G. Hogarth, The Penetration Of Arabia, {Connecticut, USA, Hyperion PressInc. 1980}, pp. 272-273

واجه صعوبات جمة في الوصول إلى حائل وفي النهاية نجح في ذلك وقابل الأمير محمد بن رشيد الذي أنزله في ضيافته لعدة أيام. طلب داوتي أن يأذن له الأمير بالاتجاه إلى العراق في حمايته ، ولكن الأميرالرشيدي الذي كان مواليا للعثمانيين ويعتبر نفسه من رعاياهم ، قد تشكك في نوايا الإنجليز وتخوف من أن يكون داوتي قد جاء لأهداف سياسية وبدعم من حكومته ، رفض الأمير الطلب وأصر على أن يعود داوتي من حيث أتى وأرسله مع ثلاثة رجال إلى خيبرمرة أخرى[1] . السلطات العثمانية في منطقة المدينة المنورة من جهتها لم ترحب به أيضاً ، فقد سجنه أمير خيبر وكتب لوالي المدينة يستفسر منه ماذا يفعل بهذا الإنجليزي النصراني . كان داوتي قد تعرف عند زيارته لخيبر في المرة الأولى على الشخص الوحيد الذي وقف إلى جانبه وهو الوجيه محمد النجومي ، الذي بذل مساعيه لإطلاق سراح داوتي . ولكن أمير خيبر أصر على أن ينتظر جواب الوالي في المدينة ، الذي وافق بعد حوالي الشهرين بأن يطلق سراحه على أن يعود إلى نجد وليس إلى الشام وهكذا حصل.

واضح من ذلك أن السلطات العثمانية في منطقة المدينة قد تشككت في أمر تركه لقافلة الحج التي كان قد أتى بصحبتها وبقائه وتجواله كل هذه المدة في مناطق أخرى ، وكذلك لوحظ اهتمامه بآثار اليهود في خيبرمما زاد الشكوك حوله . أسقط في يد داوتي عندئذ حينما أرغمته الظروف على العودة مرة أخرى إلى حائل التي وصل خارج أسوارها ، ولكن نظراً لغياب الأمير ابن رشيد عن حائل في إحدى غزواته هذه المرة فإن عنيبر (نائب الأمير لم يسمح له بالدخول إليها ، ربما بتعليمات من الأمير نفسه كما يعتقد داوتي[2].

في تلك الظروف الحرجة وخوفاً على نفسه لجأ إلى بعض البدو لحمله إلى القصيم

---

(١) عن وصوله إلى حائل في المرة الألى وما تم فيها ، ينظر:

Doughty, 1/640-645, 2/69, 73-75.

(٢) Hogarth, Doughty's Life, pp. 74-76.

ودفع لهم ما تبقى لديه من نقود في محاولة للخروج من شبه الجزيرة العربية عن طريق الكويت أوجدة ،حينما رأى أن طرق الشمال الشرقي (الاتجاه للعراق) والشمال الغربي (العودة إلى سوريا) قد سدت في وجهه برفض ابن رشيد والعثمانيين مساعدته وتسهيل مروره.

وصل داوتي أخيراً إلى القصيم ودخل مدينة بريدة وأخذه رفيقه الذي أتى به من حائل إلى قصر الإمارة وفي الصباح قابل نائب الأميرعبد الله بن مهنا (الذي كان وقتها نائبا عن أخيه الأمير حسن بن مهنا.) لاحظ داوتي أن نائب الأمير ليس مرتاحا لمقدمه من طريقة استقباله ،كان نائب الأمير وبعض الناس قد سمعوا عنه قبل مقدمه إلى بريدة من بعض الجماميل والمسافرين الذين رأوه أو سمعوا عنه في حائل وقبلا أثناء تجواله لأكثر من سنة ونصف في منطقة مدائن صالح وتيماء وخيبر ، ونقلوا الأخبار بأن حكيماً نصرانياً موجود في تلك المناطق.

وباعتبار أن أجنبياً بهذه الصفات المتميزة كان نادر الوجود في شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت ، فإنهم عرفوا أنه هو نفس الشخص منذ وصوله. ثم إن داوتي كما هو ديدنه في عدم احترام مشاعر المسلمين بشكل مستفز ، لما حان وقت صلاة الظهر وهو في السوق (حيث سمح له نائب الأمير بالتجول فيه ذلك الصباح فقط) جاهر بعدم ذهابه إلى المسجد ولم يجامل أحداً ورفض حين تجمهر عليه الناس يطالبونه بالذهاب فوراً إلى المسجد للصلاة ، فأعلن صراحة بأنه نصراني . اشتد هجوم الناس عليه ورماه الأولاد بالحجارة وطارده البعض وطالبوا بقتله ، ولكن الرجل الموكل به تمكن من أخذه إلى بيته ثم أخبر نائب الأمير بما حصل [١] .

كان هناك في الواقع عامل دولي مهم في تلك الحقبة أسهم في تأجيج العداوة ضد

---

(١) لزيادة تفاصيل حول مرور داوتي ببريدة ليوم واحد ومقابلة أميرها بالنيابة ، وأحداث ذلك اليوم ، ينظر:
Doughty, 2/339-354.

داوتي بوصفه نصرانياً ، فقد كانت الدولة العثمانية تخوض في تلك الحقبة حرباً ضروساً مع الإمبراطورية الروسية " حامية النصرانية في المشرق ". كانت تصل الناس في شبه الجزيرة العربية نتف من أخبار هذه الحرب بين الدولة الإسلامية العثمانية وبين الدولة الروسية النصرانية حسب ما لاحظ داوتي من بعض من قابلهم ، وكان الناس يعتقدون ويؤمنون بأن السلطان العثماني يمثل المسلمين جميعا في مواجهة الأعداء وكانت مشاعرهم مع الدولة العثمانية ومتأججة بالعداوة ضد النصارى حيث أدرك داوتي أصداء العداء له لهذا السبب (الحرب بين المسلمين والنصارى) [1] .

الأمير بالنيابة أيضاً لم يكن على استعداد لإبقاء هذا النصراني ومواجهة الناس الغاضبين ، ولذا وجه مرافق داوتي بأن يغادر به آخر النهار إلى عنيزة دون تأخير. اتجه داوتي إلى عنيزة برفقة هذا الرجل الذي أوكله به نائب أمير بريدة ولكنه تخلى عنه بعد أن وصل منطقة وادي الرمة (القريب من عنيزة) ربما بتعليمات من نائب الأمير كما يعتقد داوتي ، وعلى كل فإن داوتي نجح أخيراً في دخول عنيزة بمساعدة أحد الفلاحين الذين تقع مزارعهم خارج البلد [2] .

في عنيزة أوصله الفلاح الذي جاء به من الوادي مساء إلى بيت خادم الأمير واسمه

(١) الإشارة هنا إلى الحرب العثمانية الروسية في تلك السنة نتيجة صراع وعداوة مريرة في تاريخ العلاقات المتأزمة بينهما ولذلك أشار إليها داوتي على "أنها سوء الحظ الذي صادفه أثناء رحلته في البلاد العربية وفي شبه الجزيرة العربية بوجه خاص " وقال في مكان آخر" إن هذه الحرب قامت وانتهت وأنا في تجوالي في الصحراء العربية" :

Doughty, 2/352-354, 398.

للمزيد من المعلومات حول الحرب العثمانية الروسية ، ينظر: تيلر ، أ. ج. ب ، الصراع على السيادة في أوربا (١٨٤٨-١٩١٨م) ، ترجمة: كاظم نعمة و يونيل عزيز ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، بغداد ، ١٩٨٠م ، ص ٢٧١-٢٩٢ .

(٢) Doughty, 2/359-363.

علي ، فاستضافه هذا الخادم حتى الصباح حيث أخذه لمقابلة الأمير. في صباح اليوم التالي وفي الطريق لمقابلة الأمير التقى بشابين يقول بأن عليهما سمات الوجاهة والثقافة أبلغاه أنهما سمعا به من بعض المسافرين والجماميل وبما أن الأمير لم يجلس في مجلسه المعتاد بعد فقد دعواه إلى بيت أحدهما للحديث وتناول القهوة[١] . بعد ذلك قابل الأمير زامل بن سليم أمير عنيزة فرحب به ، وقدم داوتي نفسه على أنه حكيم (طبيب) إنجليزي قادم من الشام ونصراني اسمه خليل. كان صريحاً جداً من أول وهلة وتقبل الأمير هذه الصراحة ولكنه أوصاه بعد لحظات صمت بالحذر وأن لا يقول للناس أنه إنجليزي نصراني ، بل يقول إنه من الجنود العثمانيين الفارين من الخدمة وهو في طريقه إلى الكويت [٢] .

أوكل به الأمير زامل أحد رجاله (علي) (وهو نفس الشخص الذي استضافه وأوصله للأمير) "ليكون مرافقاً له ولتسهيل أموره وحمايته من الأذى وأعطى الأمير زامل تعليمات لعلي بأن يوضح لأي متسائل بأن هذا الغريب ضيف الأمير وسيغادر إلى الكويت فيما بعد ويجب عدم مضايقته ، بل وأكثر من هذا أوصى عليا بالبحث لداوتي عن دكان يستقبل فيه الناس للعلاج ، كما أوصاه بأن يبحث له عن مكان يؤويه. كان الحصول على

---

(١) Ibid, 2/364.

ويقول دليلا على مستوى هذين الشابين "إن أحدهما حياه بالإنجليزية" !!!

(٢) مما شجعه على الصراحة منذ أول لقاء أنه كان قد سمع عن مرونة وتسامح الأمير زامل بن سليم أمير عنيزة من بعض أهل القصيم "العقيلات" الذين صحبت قافلة صغيرة منهم قافلة الحج الشامي (التي كان فيها داوتي) لبعض الطريق :

Doughty, 1/46, 49-50.

والعقيلات هم تجار من أهل القصيم وأصحاب جمال ينقلون البضائع والمسافرين إلى الشام وغيرها ، ولهم شهرة في هذا ، للمزيد من المعلومات عنهم ، ينظر: المسلم ، إبراهيم ، العقيلات ، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام ، الرياض ،1985/1405 وكذلك : التركي ، ثريا ، و كول ، دونالد ، عنيزة: التنمية والتغيير في مدينة نجدية عربية ، ترجمة: جلال أمين و أسعد حليم ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، ١٩٩١م ، ص97-106 .

الدكان أسهل من الحصول على بيت نظراً لتردد الكثير من الناس في تأجير بيوتهم للنصراني الغريب ولكن تم الحصول أخيراً على غرفة ملحقة بأحد المنازل واشترط صاحب المنزل أن يعالج الحكيم أباه المريض.

أقام داوتي (الحكيم خليل) في عنيزة شهرين وخمسة أيام (وصلها في التاسع والعشرين من أبريل ١٨٧٨م (طبعاً لم يذكر التاريخ الهجري ، ولكنه يوافق تقريبا السابع أو الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر ١٢٩٥ هجرية) وغادرها نهائيا في الخامس من يوليو من نفس السنة (أوائل شهر رجب)(١) .

مما سهل عليه إقامته في عنيزة أن صار له أصدقاء من وجهائها إضافة إلى الأمير زامل ، مثل عبد الله الخنيني وعبد الله عبد الرحمن البسام وعبد الله محمد البسام (كان شاباً) وحمد اليحي وحمد السيوفي والشيخ ناصر السميري. سارت الأمور على ما يرام معظم الوقت وقام داوتي بتشخيص العديد من الأمراض وعلاجها واستضافه الكثير من الناس في بيوتهم معظمهم طلبا للعلاج . يذكر داوتي أنه دخل بيوتاً كثيرة أثناء إقامته نظراً لوجود مرضى لا يستطيعون المجيء إلى دكانه وخاصة أصحاب العلل المعدية.

لكن مشكلة داوتي أنه صريح في مسألة الدين ، بل وكان يعلن عن نصرانيته لكل أحد دون تمييز مما ساعد في تكوين رأي عام ضده مع مرور الأيام . كما أن عم الأمير زامل واسمه علي وكذلك إمام وخطيب الجمعة في المسجد الجامع عارضا وجود هذا النصراني في

---

(١) حول ترتيب إقامة داوتي في عنيزة ، ينظر:

Doughty, 2/365-367.

أما تاريخ وصوله إلى عنيزة فقد وجده دكتورهوجارث في مذكرات داوتي التي استخدمها هوجارث ، حيث كتب داوتي: "يوم الثلاثين من أبريل ١٨٧٨م هو اليوم الثاني لوصولي إلى عنيزة" ، وعلى هذا فيكون وصلها يوم التاسع والعشرين من أبريل ، انظر:

Hogarth, Doughty's Life, p. 82.

عنيزة وكان لهما تأثيرهما القوي[١] .

اضطر الأمير زامل بعد نحو شهر وأسبوع لإبعاد داوتي إلى بلدة الخبراء التي لا تبعد كثيراً لتهدئة الخواطر ثم أعاده إلى عنيزة في اليوم الرابع بإلحاح من أصدقائه ، ولكنه أبقاه هذه المرة في مزرعة خارج أسوارعنيزة. وبعد ثمانية عشر يوما حينما تهيأت قافلة تجارة متجهة إلى الحجاز تم ترتيب سفره معها حسب طلبه ، ومن جدة غادر إلى بومبي في الثالث من أغسطس عام ١٨٧٨م ومنها عاد إلى بريطانيا بعد أن قضى متجولا في شبه الجزيرة العربية واحداً وعشرين شهراً.

بعد عشر سنوات من عودته إلى بريطانيا أي في عام ١٨٨٨م أصدر كتابه الشهير والوحيد عن هذه الرحلة " رحلات في الصحراء العربية. " بعد ذلك انصرف اهتمامه عن البلاد العربية واتجه للأدب الإنجليزي فأصدر في السنوات اللاحقة دواوين شعر يمجد فيها بريطانيا وماضيها وأصالة اللغة الإنجليزية القديمة ،تزوج وصار له أولاد وعاش حياة منعزلة حتى وفاته في ٢٠ يناير عام ١٩٢٦م[٢] .

---

(١) رغم المعارضة التي أخذت تتبلور ضد وجود داوتي ؛ إلا أنه التزم بمبدأ قول الحقيقة عن دينه خاصة حينما يسأل عن ذلك أو يواجه بحوار حول الدين . أوضح ذلك في محاورة صريحة له في منزل صديقه الوجيه عبد الله الخنيني ، حيث حاوره الخنيني في ذلك محاولا نصحه بضرورة التزام الحذر في هذه الناحية وعدم مجابهة الناس. لكن داوتي أصر على أن الأصوب في نظره هو قول الحقيقة دائما مهما كانت النتيجة. ينظر تفصيل هذا الحوار الفلسفي الديني في:
Doughty, 2/368.

(٢) إضافة إلى ما ذكره داوتي عن نفسه وكتبه صديقه دكتورهوجارث ، فإن من أحسن الكتابات عن حياة داوتي ومسيرة رحلته بترتيب تاريخي:
Freeth, Zahra and Winstone, Victor, Explorers Of Arabia, From the Renaissance to the Victorian Era, {New York USA, Holmes and Meier Publishers, inc., 1978}, pp. 225-267.
كذلك: بدول ، روبن ، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية ، ترجمة: عبد الله آدم نصيف ، جامعة الملك سعود، الرياض ، 1409/1989, ص ٧٧-٨٩.

اشتهر شارلز داوتي بأنه أحد أبرز الرحالة الإنجليز في أواخر القرن التاسع عشر في عهد الملكة فيكتوريا ، يصفه أحد من ترجموا له بأن شهرته في هذا المجال ميزته عن غيره حتى فيما واجهه في رحلته من صعوبات وهوان وقساوة حياة ومخاطر قل أن يمر بها غيره من الرحالة المكتشفين[١]. أهم أعماله وأشهرها هو كتابه عن رحلته لشبه الجزيرة العربية الذي يعده البعض أحد أهم المصادر الأساسية عن تاريخ شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر ، بل إنه في نظر هذا البعض : " لم يرسم أحد صورة لمجتمع شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت كما رسمها كتاب داوتي"[٢]. أما دواوينه الشعرية فلم يعرف أو يذكر بها إلا لدى فئة محدودة من عارفيه ، ولم يذكره باسم الشاعر فيما اطلعت عليه ممن كتبوا عنه إلا صديقه المعجب به جداً الكولونيل ت. أ. لورنس الذي يذكر داوتي بلقب " الشاعر الرحالة " في مقدمته لكتاب " رحلات في الصحراء العربية " ، ولكنه لم يتحدث عنه من الناحية الأدبية إطلاقا[٣] .

وحتى تتضح الصورة أكثر عن داوتي ومسيرة رحلته أرى أنه من الضروري إعطاء لمحة قصيرة جدا عن الظروف والأوضاع السياسية في الوقت الذي تجول فيه داوتي في شبه الجزيرة العربية حتى نضع الرحلة ونفهمها في إطارها التاريخي والسياسي دولياً ومحلياً.

سبقت الإشارة إلى أن داوتي قام برحلته بين عامي ١٨٧٦-١٨٧٨م ميلادية في حقبة ازدهار عهد الملكة فيكتوريا (١٨١٩-١٩٠١م) ملكة بريطانيا وإمبراطورة الهند ، وقد بلغت بريطانيا أوج عظمتها باتساع رقعتها وازدهار اقتصادها وصناعاتها وقوة

(١) بدول ، (سبق ذكره) ، ص ٨٨ .

(٢) Tabachnick, Stephen, E., (Editor), Explorations In Doughty's Arabia Deserta, {Georgia, USA, University of Georgia press, 1987}, pp. 186, 198.

(٣) ينظر مقدمة لورنس الضافية لكتاب داوتي:
Doughty, pp. 17-28.

أسطولها البحري ، مع تنامي وتزايد منافسة بعض القوى الأوربية الأخرى مثل فرنسا وألمانيا وروسيا القيصرية. في الوقت نفسه كانت الدولة العثمانية الإسلامية قد بدأت تئن تحت ضربات الانهيار المالي وتمزق أشلائها وعدم قدرة تكوينها الإداري والبيروقراطي على استيعاب الإصلاحات ومواكبة القوى الأوربية المنافسة بعد مضي حوالي ستة قرون على قيام الدولة. نتيجة لهذا أطلقت عليها الدول الغربية في القرن التاسع عشر لقباً معبراً عن نوايا هذه الدول الاستعمارية تجاهها ، وهو: " رجل أوربا المريض " حيث كانت هذه القوى وعلى رأسها بريطانيا تتحين الفرصة المناسبة للإجهاز على هذه الدولة واقتسام أجزائها[١].

أما مناطق شبه الجزيرة العربية التي زارها الرحالة داوتي -والتي تعنينا في هذا البحث- ، فقد كانت في نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي (١٢٩٣-١٢٩٥هـ/ ١٨٧٦- ١٨٧٨م) من الناحية السياسية كالتالي:

١ - مدائن صالح والعلا (الحجر) وتيماء وخيبر تخضع لحكم الوالي العثماني في منطقة المدينة المنورة.

٢ - منطقة حائل وجبل شمر وما حولها (من شمال نجد) تخضع لحكم إمارة آل الرشيد ومركزها حائل ، وهي تحكم نفسها بنفسها مع ولائها للدولة العثمانية.

٣ - منطقة القصيم - بريدة وعنيزة والخبراء والهلالية - (وهي جزء من شمال نجد) كانت في تلك الحقبة تتذبذب بين خضوعها الرسمي لحكم الدولة السعودية في وسط وجنوب نجد ومركزها الرياض ، وبين محاولات السيطرة من آل الرشيد في الشمال ، ولكن المنطقة في الواقع داخلة في حكم الدولة السعودية (في دورها الثاني آنذاك) وتدين بالولاء والتبعية لها.

---

(١) للتوسع في الأوضاع السياسية الدولية ، يراجع مثل: نورفان ، بيير ، تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر ١٨١٥-١٩١٤م) ' ترجمة جلال يحيى .- القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٠م . وكذلك: تيلر ، الصراع على السيادة في أوربا ١٨٤٨-١٩١٨" (مرجع سابق).

طبعاً لهذه الأوضاع السياسية المحلية أسبابها وظروفها من عدة نواح ، ليس هذا مجال الدخول فيها ؛ لأنه يطول ويخرج بالبحث عن هدفه الأساس [1] .

هذه إشارة سريعة ومختصرة جدا للظروف والأوضاع السياسية الدولية والمحلية إبان قيام داوتي برحلته التي نحن بصددها ، وبما أن موضوع البحث يتناول الناحية الصحية في كتاب داوتي ، فليس هذا مجال الحديث عن الأوضاع السياسية أو غيرها مما هو جدير بالتناول في أبحاث أخرى سواء من خلال ما كتبه داوتي أوفي كتابات غيره من الرحالة.

فكرة عن كتاب داوتي: "Travels In Arabia Deserta" رحلات في الصحراء العربية" وأسلوبه:

هذه ناحية أخرى مهمة للكتابة عن الموضوعات التي تناولها داوتي ، وهي أنه لا بد في نظري لأخذ صورة أشمل عما قام به وكتبه واستكمالا للتعريف به وفهم نفسيته ونمط تفكيره وأسلوبه من إعطاء فكرة أيضاً عن سجل رحلته وأشهر أعماله ،باعتبار هذا الكتاب سيكون المصدر الأساس في تناول الموضوع الذي نكتب عنه ، مع الاستعانة أيضاً بمصادر ومراجع أخرى.

Travels In Arabia Deserta"

"رحلات في الصحراء العربية " هو أهم مصدر عن رحلته التي نحن بصددها ، بل

(١) للمزيد عن أوضاع شبه الجزيرة العربية في تلك الحقبة بشكل عام ، يمكن مراجعة ما كتب في تاريخ المملكة العربية السعودية (في دورها الثاني) ، وتاريخ إمارة آل الرشيد في منطقة جبل شمر ،
ينظر على سبيل المثال :
١ - العثيمين ، عبد الله الصالح . تاريخ المملكة العربية السعودية (الجزء الأول) ، عمادة شئون المكتبات جامعة الملك سعود .- الرياض ، ١٤١٤/١٩٩٣م .
٢ - العثيمين ، عبد الله الصالح . نشأة إمارة آل رشيد ، عمادة شئون المكتبات ، جامعة الملك سعود .- الرياض، ١٤٠١/ ١٩٨١م .
٣ - الزعارير ، محمد عبد الله . إمارة آل رشيد في حائل ، بيسان للنشر والتوزيع .- عمان (الأردن) ، ١٩٩٧م .

هو المصدر الأساس والضروري لكل من يكتب عنها. هو السجل الكامل لما دونه شارلز داوتي من مذكرات وملاحظات ومعلومات عن هذه الرحلة الشهيرة منذ أن غادر دمشق متجهاً إلى مدائن صالح في الثالث عشر من نوفمبر ١٨٧٦م حتى دخل إلى مبنى القنصلية البريطانية في جدة طالباً السفر إلى الهند في طريق العودة إلى بريطانيا في الثالث من أغسطس ١٨٧٨م .

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٨٨٨م أي بعد عشرة أعوام من عودة داوتي إلى بريطانيا ؛ إذ طبعته مطبعة جامعة كيمبردج بعد طول معاناة مع ناشرين آخرين رفضوا نشر هذا العمل [١] .

كان هناك سببان رئيسان لمعاناة داوتي عند نشر كتابه:

أولهما: صعوبة أسلوبه واللغة التي كتب بها على القراء ، فقد تخلى داوتي قصداً عن اللغة الإنجليزية المعاصرة (آنذاك) وكتب بلغة إنجليزية تعود إلى القرون الوسطى وأوائل العصور الحديثة حيث كان اتجاهه الفكري والعلمي وثقافته منصبين على الاهتمام بالحفاظ على "أصالة" و"صفاء" اللغة الإنجليزية من وجهة نظره من المؤثرات "الحديثة" والمفردات والعبارات "المبتذلة" حسب تعبيره التي كان يراها إسفافا باللغة الإنجليزية الأصيلة.

---

(١) النسخة التي بين يدي من كتاب داوتي هي إحدى الطبعات الأصلية للكتاب ، راجعها توماس إدوارد لورنس (المشهور بـ لورنس العرب) مع داوتي عام ١٩٢١م وظهرت عام ١٩٣٦م جزءين في مجلد واحد وكتب لورنس لها مقدمة ضافية ، ونشرها بنفس عنوانه الأصلي: Travels in Arabia Deserta, By: Charles Montague Doughty, with an introduction by: T. E. Lawrence ،

(ينظرهامش (٤) في هذا البحث) ،

ملاحظة : هذا التوضيح السابق ضروري ؛ لأن الكتاب طبع في السنوات الأخيرة على شكل جزءين منفصلين ، وبعنوان مختلف عن عنوان داوتي الأصلي ، فقد طبع الجزءان المنفصلان تحت عنوان :

Wonderings in Arabia, London, 1969.

كان متأثراً بأسلوب الشاعرالإنجليزي تسوشر (١٣٤٠-١٤٠٠) أبرز الشعراء والأدباء الإنجليز في العصور الوسطى الذي كان يهتم بالحفاظ على اللغة الأصيلة واستعمالها ، وكان داوتي يحمل ديوانه معه في أسفاره حتى في رحلته إلى شبه الجزيرة العربية مع مذكراته الخاصة وصندوق أدويته وأغراضه[١] كذلك تأثر بالشاعر سبنسر(١٥٥٢-١٥٩٩) الذي اشتهر في عهد الملكة إليزابيث الأولى (١٥٣٣-١٦٠٣) وكان سبنسر إلى جانب ذلك فيلسوفا مزج في شعره وأدبه بين القيم الإنجليزية والاعتزاز باللغة القديمة من جهة وبين الاعتزاز بالمسيحية الغربية من جهة أخرى.

ومن هذه الملاحظات الأخيرة نلحظ بوضوح مدى قوة تأثير هذين الشاعرين فكراً وأسلوباً وأدباً ولغة على شارلز داوتي. وقد وصل الأمر بداوتي إلى أن انتدب نفسه أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين لما يعده حفاظاً على أصالة اللغة وجعل ذلك أهم هدف سعى لخدمة أمته البريطانية من خلاله. بسبب ذلك قاوم كل الضغوط من قبل الناشرين وغيرهم من المختصين حتى من أصدقائه الرحالة أمثال ريتشارد بيرتون (وهو رحالة وأديب مشهورسبق له زيارة شبه الجزيرة العربية أيضاً). اطلع بيرتون على المسودة فنصح داوتي بالاختصار وتعديل أسلوب الكتاب وإعادة كتابته بشكل آخر أكثر وضوحا وسهولة ، ولكن داوتي رفض كل المحاولات بعناد وإصرار [٢] .

والحقيقة هي أنه من خلال التجربة ، فإن أي مطلع على الكتاب يجد في بعض الفصول صعوبة في فهم ما يقول داوتي عند حديثه عن بعض الجزئيات ، ليس فقط في حرصه من وقت لآخر على استعمال مفردات إنجليزية لا تستخدم الآن ولكن أحياناً في

---

(١) Freeth and Winstone, op., cit., p. 251.

(٢) عن مدى تأثر داوتي بالشاعرين تسوشر وسبنسر ، ينظر: السمرة ، محمود ، باب كتاب الشهر: رحلات في الصحراء العربية (وهذه ترجمة عنوان كتاب داوتي) ، مجلة العربي ، وزارة الإعلام .- الكويت ، العدد ٩٤، جمادى الأولى ١٣٨٦هجرية/ سبتمبر ١٩٦٦ ، ص١٣١ - ١٣٥.

الأسلوب الذي لا تجدي معه الاستعانة بالقواميس. لذا يلجأ القارئ إلى إعادة قراءة الفقرة مرات عديدة ،كما يعمد في هذه الحالات إلى ربط الأحداث بعضها ببعض أو الرجوع لصفحات أخرى في مكان آخر إلى غير ذلك من أساليب لفهم ما يقصده داوتي. أما المفردات اللغوية فقد استعمل مفردات غريبة وقديمة ابتداء من آخر كلمة في عنوان الكتاب نفسه ، فيلاحظ المطلع لأول وهلة على عنوان الكتاب كلمة:

"DESERTA"

بدلا من كلمة:

"DESERT"

وهكذا في ثنايا الكتاب تكثر الكلمات الإنجليزية القديمة.

ثانيهما : كبر حجم العمل فهو يزيد على ١١٥٠ صفحة وتزيد كلماته على نصف مليون كلمة، ومعنى ذلك أن ثمنه سيكون مرتفعا بالنسبة لمستوى القارئ العادي لارتفاع كلفة طباعته. ولذا لم يبع منه إلا القليل جدا وخسرت مطبعة جامعة كيمبردج حين طبعت منه خمسمائة نسخة عام ١٨٨٨م (وهذا عدد كبيرآنذاك لكتاب ضخم من جزأين لا يهم موضوعه كثيرين من الناس) إذ لم يقبل عليه إلا القليل فقد كان سعره ثلاثة جنيهات إسترلينية وهو مبلغ مرتفع بمقاييس أواخر الثمانينات من القرن التاسع عشر إضافة إلى صعوبة أسلوبه -الذي ذكرناه- ونتيجة لذلك استمر إحجام الناشرين عنه مدة عشرين سنة[١] .

منذ العام ١٩٠٨م بدأت إعادة طبع الكتاب عدة مرات حتى سنة ١٩٣١م ، ففي تلك السنة (١٩٣١م) قام شخص يدعى إدوارد غارنت بنشر مختصر للكتاب عن طريق اختيار مقتطفات منه وسماه : Passages From Arabia Deserta by Edward Garnett" "مقتطفات من كتاب الصحراء العربية" تأليف: إدوارد

(١) Trench, Richard, Arabian Travellers, {London, Macmillan London Limited, (No date),}, p. 162

غارنت. ذكر في مقدمته أن مجموع ما اختاره لا يمثل إلا ربع الكتاب الأصلي وأن ما قام به كان بإلحاح من أحد الناشرين الذي أبدى رغبة شديدة في إعادة نشر عمل داوتي الذي كان عديم الانتشار في الماضي للأسباب السابقة المعروفة وأشار على غارنت بأن لا تتعدى النسخة المختصرة مئة وثلاثين ألف كلمة وذلك يعني ربع الكتاب الأصلي.

ووجهة نظر غارنت في هذا الاختصار كما شرحها في مقدمة " مقتطفاته " أنه حذف أشياء كثيرة من أصل الكتاب لأنها غير مهمة كما يرى ،كما أنه كان يريد تعريف الأجيال الجديدة بعمل داوتي ويرى أنه لا بأس في حذف الكثير ما دام هدفه أن يجعل خمسة قراء من الجيل الجديد يقبلون على قراءة هذا العمل مقابل كل قارئ واحد من الجيل السابق القليلين الذين قرأوا الكتاب الأصلي كما أنه أراد أن يحبب للجيل الجديد أسلوب داوتي.

وبالاطلاع على كتاب المقتطفات لغارنت يلاحظ أنه صغير الحجم في متناول القارئ العادي ويعطي فكرة عامة موجزة عن رحلة داوتي خاصة للقارئ الغربي الذي يريد معرفة شيء عن الصحراء العربية وأهلها لما للغربيين من فتنة بسحر الشرق العربي الإسلامي . إنما من وجهة نظري فإن اختصار ثلاثة أرباع الكتاب وقفز عدة أسابيع وشهور كما يذكر غارنت نفسه- من سياق رحلة داوتي- قد أنقص باعتقادي من قيمة العمل الأصلي وخاصة للمتخصصين من الأكاديميين وغيرهم ، وعلى أي حال فإن غارنت لم يكن يقصد هؤلاء الأخيرين كما مر بنا بل قصد إرضاء الناشرين واستقطاب القراء العاديين كما ذكر صراحة[١].

---

(١) Garnett, Edward, Passages from Arabia Deserta, {London, Jonathan Toonto, 1931,}

"مقتطفات من كتاب الصحراء العربية " إدوارد غارنت. ويلاحظ أن هذا المختصر سهل التداول حتى أن أحد الباحثين اختلط الأمر عليه فلم يفرق بين غارنت هذا وبين مؤلف الكتاب الأصلي ، في كتابه عن إمارة آل رشيد (سبقت الإشارة إليه) يشير المؤلف محمد الزعارير إلى كتاب داوتي الأصلي في المراجع الأجنبية ص٢٦٣ بنفس عنوان كتاب غارنت ، وقد رجع إليه عدة مرات.

وعلى العكس من غارنت ، فعل ت. أ. لورنس (لورنس العرب) صديق داوتي والمعجب به أيما إعجاب ، الذي اعتمد كثيراً على ما كتبه داوتي حينما ذهب (لورنس) إلى الحجاز وعمل مع الشريف فيصل بن الحسين مستشاراً للثورة العربية الشريفية في الأعوام ١٩١٦-١٩٢١[١] .

لقد بلغ تقدير لورنس لكتاب داوتي والاستفادة منه أن قام بإعادة نشر العمل الأصلي كاملاً (جزأين في مجلد واحد) وكتب له مقدمة ضافية أشاد فيها بالكتاب وذكر أنه درسه لمدة عشر سنوات ، وقال عنه من فرط إعجابه به "أنه إنجيل من نوعه" وأطرف ما في تلك المقدمة أن لورنس قال: "إننا نطلق على الكتاب نفسه (داوتي)" نظراً لشهرته وارتباطه القوي بمؤلفه. ذكر لورنس أيضاً بأنه حين ذهب إلى الحجاز عام ١٩١٦م وعمل هناك واحتك بالبادية في المناطق التي زارها داوتي لاحظ أن الناس لا زالوا بعد أربعين عاما يتذكرون "الحكيم خليل" ومجيئه إلى المنطقة قبل سنوات طويلة ويحكون للورنس شيئاً مما عرفوه عن ذاك الحكيم الذي كانوا لا يزالون يتداولون أخباره.

يتضح مما قام به لورنس اختلاف النظرة والأهداف عما قام به غارنت ، فلورنس طبعاً لم يكن يهمه على الإطلاق إرضاء الناشرين ولا استقطاب القراء العاديين بقدر ما كان يرى في الكتاب دليلاً أساسياً ومرشداً لمن يريد الذهاب إلى شبه جزيرة العرب والعمل هناك. كذلك هو في نظره عمل صيغ بأسلوب أدبي أصيل ينبغي الحفاظ عليه كما هو والاعتزاز به باعتباره عمل " شاعر رحالة " كما قال لورنس. إضافة إلى ذلك ففيه الكثير من المعلومات والملاحظات عن شبه الجزيرة العربية وأهلها جغرافياً وتاريخياً وسياسياً

---

(١) لورنس هو الضابط الإنجليزي المشهور لدى الدارسين لتاريخ شبه الجزيرة العربية في حقبة الحرب العالمية الأولى وما أعقبها واشتهر باسم (لورنس العرب) أرسلته بريطانيا إلى الحجاز ليكون ضابط اتصال لدى أشراف الحجاز. ولورنس هذا مع صديق داوتي الآخرالدكتور هوجارث كانا من أبرز أقطاب السياسة البريطانية في المنطقة العربية ومنفذي مخططاتها في العقدين الأولين من القرن العشرين.

واقتصادياً ومعلومات عن القبائل والزعامات المحلية وكيفية التعامل معها إلخ ، وهي الأشياء التي استفاد منها لورنس وأمثاله بشكل كبير[1] .

الأوضاع الصحية وكيفية التعامل معها من خلال ما كتبه داوتي:

بعد هذا التقديم عن حياة داوتي وتكوين فكرة عن رحلته إلى شبه الجزيرة العربية وكتابه عن هذه الرحلة ، وهو تقديم ضروري في نظري للدراسة التي نحن بصددها ،نأتي إلى تناول ما كتبه عن الأوضاع الصحية في منطقة شمال شبه الجزيرة العربية في حقبة زيارته لها وكذلك طريقته في ممارسة التطبيب. الهدف من ذلك أن نرى كيف فهم ورأى الأوضاع وكيف أبرزها وحللها كما نرى كيفية احتكاكه بالناس وتعامله معهم من خلال هذه الأوضاع وآرائه في كل ذلك بوصفه أحد النماذج المتميزة بين الرحالة الأجانب في وصفه الدقيق لكل ما شاهده ومن احتك به.

ولعل أبرز ما يميز داوتي في كتابته ناحيتان ، هما باختصار:

أولاً : تعصبه الواضح فيما كتبه لديانته النصرانية (المسيحية) بشكل فج ومستفز أينما حل مما جلب له المتاعب وحرمه من قبول الكثيرين له حتى وإن كان يمارس مهنة التطبيب،

(١) ينظرمقدمة لورنس الضافية لكتاب داوتي:

Doughty, pp. 17-28.

ولعل من المفيد والمناسب هنا التنويه بأن الكتاب الذي بين أيدينا عن رحلة شارلز داوتي هو الأثر النثري الوحيد له ، وهو في نفس الوقت أشهر آثاره على الإطلاق. وقد أصبح يعرف به وحده خاصة في مجالات الرحلات والآثار والجغرافيا والتاريخ والسياسة فيما يهم الشرق العربي وشبه الجزيرة العربية أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ بدايات الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي. أما آثاره الأخرى فهي كلها دواوين شعر أنفق فيها حوالي أربعين عاماً من حياته حيث تفرغ لها بعد عودته من رحلته إلى الشرق العربي، وأشهر عناوين هذه الدواوين:

"Under Arms" , and " The Dawn in Britain".

وأربعة دواوين أخرى صدرت تباعاً. إنما ذكر المؤرخون لحياة شارلز داوتي (في المصادر والمراجع التي سبق ذكرها) أنه رغم غزارة إنتاجه الأدبي وكثرة أشعاره إلا أنه لم يجد شهرة أو قبولا في هذا المجال ، وبقي معروفا بكتابه عن رحلته إلى شبه الجزيرة العربية ففقط.

ورغم ذلك تسامح العرب المسلمون معه بشكل عام كما مر بنا. وفوق ذلك فإن أسلوب كتابته وأفكاره يتضح فيها - كما أثبت أحد الباحثين - كرهه الشديد للإسلام وأهله[١].

ثانياً : خلو رحلته من أي هدف سياسي معروف وعدم وجود أي دعم أو غطاء معنوي أو مادي لكل ما قام به في المشرق العربي الإسلامي منذ وصوله إلى مصر وسيناء وجولته في الشام وجنوب الأردن ثم شبه الجزيرة العربية ، (منذ أوائل عام ١٨٧٥م وحتى عودته إلى بريطانيا أواخر عام ١٨٧٨م) [٢] .

ومما يدعم هذا الاستنتاج أني لم أجد فيما اطلعت عليه من كتابات حول داوتي ورحلته سواء كانت متخصصة أو عامة من يذكر أي صفة رسمية أو يشير إليها ، حتى أن أحد الباحثين في رحلات الغربيين إلى شبه الجزيرة العربية ريتشارد ترنش حينما تعرض لداوتي في فصل خاص به من كتابه ذكره بعنوان: "The wanderer" أي المتجول أو الطواف من التطواف الذي غالباً ما يكون بهدف المتعة الشخصية وتسجيل الانطباعات الخاصة والاهتمام بالقضايا العلمية الآثارية والتاريخية والجغرافية إلخ ، في حين ذكرترنش آخرين من الرحالة الأجانب تحت عناوين توحي بمهامهم الرسمية [٣] .

---

(١) Assad, op., cit., pp. 118-120.

(٢) Ibid, p. 127.

جاء تأكيد توماس أسد لهذه النقطة عند مقارنته الرحالة داوتي بكل من الرحالة بيرتون والرحالة بلنت.

(٣) Trench, op., cit., chapter (6), pp. 131-162.

من الجدير بالملاحظة في هذا الموضوع أنه عند الحديث عن أي رحالة غربي إلى البلاد العربية لا بد أن يثار تساؤل حول أهدافه الحقيقية (غير المعلنة) من مجيئه وتحمله للمخاطر ومجازفته بنفسه. الرحالة شارلزداوتي ليس استثناء من هؤلاء ، فقد أثيرت حوله تساؤلات بشكل أو بآخر ، ولكن يبدو من مراجعة معظم ما كتب عنه أنه لم يتمكن أحد من معرفة أو تحديد أي هدف آخرغيرما أعلنه هو وما هو معروف عنه (أهداف آثارية وجغرافية). كما لم أجد من خلال قراءاتي عنه من أشار إلى ارتباطه بحكومته بأي شكل ، والدلائل لا تشير إلى أي شيء من هذا وخاصة في ظل غياب أي دعم من القنصلية البريطانية في دمشق وما شابه ذلك من أمور لا توحي بأنه مرسل من جهة حكومية ، ومن ذلك إشارة بعض الكتاب له على أنه مجرد جوال وعالم آثار وجغرافيا أحب الطواف بالبلاد العربية.
==

سوف تقسم كتابة داوتي عن الأوضاع الصحية إلى فترتين رئيسيتين :

أولاهما: فترة تجواله في شمال غرب شبه الجزيرة العربية ومنطقة حائل في شمال نجد ، وتمتد منذ خروجه من دمشق مع قافلة الحج الشامي في موسم حج عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م حتى ربيع عام ١٢٩٥-١٨٧٨م. تتميز هذه الحقبة من رحلة داوتي بأنها الأطول في رحلته إلى شبه الجزيرة ، واقتصار احتكاكه وتعامله معظم الوقت على البدو في الصحراء ، ما عدا واحات تيماء وخيبر ثم مدينة حائل لمدد قصيرة ومتقطعة ، وممارسة محدودة ومتقطعة للتطبيب كما سنرى.

ثانيتهما: فترة بقائه في القصيم (بريدة وعنيزة والخبراء والهلالية)، وتمتد من أواخر أبريل ١٨٧٨م حتى مغادرته عنيزة نهائيا في الخامس من يوليو من نفس السنة. وأهم ما يميز تلك الحقبة أنها الأقصر في رحلته ، وكذلك اقتصار احتكاكه وتعامله فيها مع الحاضرة في المدن وما حولها ، وأهم من هذا وذاك ممارسته للتطبيب على نطاق أوسع بشكل مستقر في مكان خاص به (دكان) وكذلك في البيوت.

من المهم الإشارة هنا إلى أنني لم أر حتى الآن بحثاً متخصصاً تناول بالدراسة الأوضاع الصحية أو الاجتماعية أو الاقتصادية وما إليها من الموضوعات التي تحدث عنها كتاب داوتي[١] .

== أما مسألة أن يستفاد من جهود وكتابات الرحالة أيا كانوا سواء بطرق مباشرة أو غير مباشرة ، وأن هؤلاء الرحالة يخدمون بقصد أو بدون قصد مصالح حكوماتهم أومن يعمل لصالحها ويسهمون في تنفيذ سياساتها فهذا حاصل منذ بدأت رحلات الغربيين إلى الشرق ولا يستثنى من هذا شارلز داوتي ولا غيره. وقد سبق أن أشرت إلى استفادة لورنس ودكتور هوجارث من كتابات داوتي وهما من أبرز أساطين السياسة البريطانية في أوائل القرن العشرين ومنفذي مخططاتها في المنطقة العربية.

(١) جدير بالإشارة هنا إلى أنه حتى كتب دكتور هوجارث وأسد وتباكنيك وغيرها من أبرز الكتابات المتخصصة عن داوتي ، على أهميتها فإنها تخلو جميعاً من دراسات عن الأوضاع الصحية أو الاجتماعية أو الاقتصادية وما إليها من خلال ما كتبه داوتي حول المناطق التي زارها في شبه الجزيرة العربية.

لقد وفر شارلز داوتي للدارسين بقصد أو بدون قصد عن طريق كتابته التفصيلية المستفيضة في أمور شتى كماً هائلاً من تفاصيل المعلومات والملاحظات والتعليقات حول كل شيء مر به تقريبا في هذه الرحلة بكل صراحة وجرأة ووضوح حتى حول نفسه وانطباعاته ومواقفه وآرائه التي سببت له المشكلات والمخاطر أينما حل وكادت في بعض الأحيان أن تودي بحياته.

يشتمل جانب كبير من الجزء الأول من كتاب "رحلات في الصحراء العربية " على الحديث عن المنطقة التي هي الهدف الأساس من رحلته . وهذا الهدف هو باختصار زيارة منطقة مدائن صالح في شمال الحجاز للاطلاع على النقوش واستنساخها وكذلك للاطلاع على الكتابات النبطية التي سمع عن وجودها هناك حرصا منه على أن يقوم بذلك قبل غيره كما ذكر. كما أنه كان يريد ربط ما يراه على الطبيعة بما قرأه في التوراة عن هذه الأشياء وعن غيرها مثل ما فعل في سيناء وفلسطين ، وقد كتب عن مدائن صالح باستفاضة خاصة من الناحية الآثارية والجغرافية وضمن كتابته بعض الرسومات.

وتشمل الفصول الأخيرة من الجزء الأول مسيرة الرحلة بعد قراره الانفصال عن قافلة الحج الشامي والبقاء في منطقة مدائن صالح ، ثم بداية تطوافه خارج منطقة مدائن صالح وما رافق ذلك من تفاصيل وتطورات في تيماء وخيبر ومناطق البادية في تلك النواحي. كما تشمل أيضاً تحوله شرقا إلى شمال نجد حينما قرر الذهاب إلى حائل والأحداث التي صاحبت هذا التحول في مسار رحلته وإبعاده منها ثم عودته إليها مرة ثانية. خلال هذه الفصول كتب عن عدة أمور من ضمنها الناحية الصحية ووصف الأمراض والعلاج في تلك المناطق التي تجول فيها كثيراً.

الجزء الثاني من الكتاب يشتمل على بقية أحداث رحلة حائل ثم تحوله جنوباً إلى منطقة القصيم وأحداث رحلته إلى بريدة ثم إلى عنيزة وإقامته وممارسته فيها مهنة التطبيب، كذلك نفيه المؤقت إلى الخبراء مرورا بالهلالية في طريق عودته إلى عنيزة ثانية

وبقائه في مزرعة خارج أسوار البلد ثم مغادرته نهائيا مع قافلة السمن التجارية المتجهة إلى مكة ، ثم مروره السريع بالطائف ومنها إلى جدة.

في سياق هذه المسيرة ذكر تفاصيل مهمة وجزئيات متعددة الجوانب ،مثل الأوضاع الصحية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية إلى ما هنالك من أمور يندر وجودها في المصادر والمراجع المحلية المعاصرة لرحلة داوتي آنذاك وحتى معظم الكتابات التي جاءت فيما بعد.

ذلك أن أكثر هذه الموضوعات غالباً ما يتم تجاهلها وعدم الإشارة إليها من قبل معظم المصادر المحلية المعاصرة خاصة بحكم أسلوب وثقافة ومنهج ذلك العصر الذي كان يركز على الجوانب السياسية والحربية والأحداث الكبيرة وقد يذكر بعض الظواهر الطبيعية المؤثرة (من أمطار وكوارث وغيرها) بينما الأمور الأخرى إن وجدت فهي لا تتعدى إشارات عارضة وبسيطة على شكل أخبار مختصرة ودون تعليق[(١)] .

وحتى بعض الأمور السياسية والحربية من تاريخ تلك الحقبة فقد قدم لبعضها داوتي توضيحاً لا يوجد عند غيره كما ذكر ذلك على سبيل المثال أحد المهتمين بدراسة أحوال منطقة القصيم السياسية في ذلك العصر[(٢)] .

(١) أشارت بعض الكتابات المعاصرة من الدراسات الأكاديمية التي تدرس الناحية الاجتماعية إلى نتف من أوضاع بعض المناطق قديما من الناحية الاجتماعية فقط ، كما نرى مثلا في كتاب " عنيزة: التنمية والتغيير في مدينة نجدية عربية" دراسة اجتماعية معاصرة (مرجع سبق ذكره). والدراسة تتناول في أحد فصولها أوضاع مجتمع المدينة القديمة بشيء من الدراسة والتحليل. وقد استشهدت هذه الدراسة من ضمن مصادرها بشيء مما ورد في كتاب داوتي حول هذه الناحية.

(٢) مثال ذلك ما ذكره الدكتور محمد السلمان في كتابه عن الأحوال السياسية في القصيم في عهد الدولة السعودية الثانية ، بأن المصادر المحلية لا تفيدنا كثيراً في شرح بعض الأحداث وأسبابها و لا نجد فيها ضالتنا. ساق لإيضاح ذلك حادثة الخلاف بين عنيزة والحكومة المركزية في الرياض بعد وفاة الإمام فيصل بن تركي مما أدى إلى حرب بين الطرفين ، فمصادر مثل ابن عيسى في "عقد الدرر" و مقبل الذكير في "تاريخ نجد" وعبد الله البسام في "تحفة المشتاق" ومحمد العلي العبيد في "النجم اللامع" التي تعد أساسية في تاريخ ==

فيما يخص الحقبة الأولى من جولة داوتي من الناحية الصحية والتطبيب فقد بدأ بذلك أثناء مرافقته لقافلة الحج. يذكر بأنه قام خلال مسيرة ركب الحجيج الذين يزيدون حسب تقديره على ٦٠٠٠ (ستة آلاف) حاج إضافة إلى الحامية العسكرية والخدم بتقديم بعض الخدمات العلاجية للمجموعة التي كان يرافقها من هذا الجمع الكبير، عالج بعض أفرادها ومعظمهم من حجاج بلاد فارس وبعض الأتراك . وقد كسب ودهم وثقتهم وضيافتهم له أيضاً فقد كان يشاركهم الطعام والشراب والمأوى في الخيام . كما حصل منهم على معلومات ساهمت في توسيع مداركه حول الإسلام والحج وغير ذلك من أمور تسنى له معرفتها عن أحوال المسلمين.

ولقد حاول داوتي استخدام نفوذه على أساس خبرته في الطب لطلب التخفيف في العقوبة على أحد الأشخاص ، ذكر أنه حضر مرة مع هذه المجموعة في أثناء مسيرتهم جلد رجل اتهموه بسرقة جنيهات من سيده الفارسي. كان ضربهم لهذا الرجل حسب ما لاحظ داوتي شديداً وزائداً عن الحد في نظره حيث تناوب على جلده خمسة رجال ، فلم يصبر داوتي وتدخل مخاطبا المجموعة قائلاً :

"يا سادة أنا حكيم وإذا استمر ضربه هكذا فسيموت" ، ورغم تقديرهم لما قاله الحكيم إلا أنهم أصروا على أن يعترف المجرم قبل إيقاف جلده ، وهكذا حصل. الشاهد من هذا أن داوتي رأى في مهنة التطبيب مجالا للتدخل في شئون أناس مسلمين وهو الأوربي الغريب النصراني ، ولذلك استخدمها مدخلاً للشفاعة ، ولكن وكما يذكر في سياق القصة لم يأخذوا بكلام الحكيم لأن المبلغ المسروق كان كبيراً[١].

== تلك الحقبة ، تسكت مع ذلك كلها عن ذكر سبب الحرب. يقول السلمان إنه وجد ضالته عند داوتي الذي قدم تفسيرا لها مع أنه زارعنيزة بعد أحد عشر عاما من تلك الأحداث.

ينظر: السلمان ، محمد عبد الله ، الأحوال السياسية في القصيم في عهد الدولة السعودية الثانية ، المطابع الوطنية للأوفست ، عنيزة ، 1407-1408/1987-1988 ، ص ١٩٩- ٢٠٠.

(١) Doughty, 1/51-53.

من ناحية أخرى ذكرله أحد مرافقيه في القافلة عن حاجة القافلة والحجاج عموما إلى طبيب بشكل دائم ، واستشهد على ذلك بأنه قبل ثلاث سنوات سميت تلك السنة بسنة الكوليرا. قال مرافق داوتي بأن الناس في قافلة حج تلك السنة كانوا يموتون بأعداد كثيرة أثناء سيرهم في الصحراء حتى أنهم دفنوا في يوم واحد ما يزيد على المائة ، فقد إجتاح وباء الكوليرا غرب شبه الجزيرة ولم يعرف الناس كيف يتصرفون ولم يكن معهم طبيب. مرافق داوتي الذي كان مع الحجاج في تلك السنة (سنة الكوليرا) ، ذكر له بأن كل شخص في القافلة كان يعتقد بأنه سيموت ويدفن في الصحراء ولن يعود إلى بلده وأهله ، حتى هو نفسه لم يصدق كيف نجا من ذلك الوباء[١] .

فيما عدا تلك الإشارات السابقة المتعلقة بالشئون الصحية والتطبيب فلا نجد شيئاً آخر في هذا المجال خلال مدة مرافقة داوتي للقافلة من دمشق حتى مدائن صالح. غير أنه يؤكد كما يقول صديقه هوجارث عزمه على المضي في ممارسة هذه المهنة حينما يقيم بين العرب حيث يؤمل أن تساعده في تحقيق أهدافه الآثارية والجغرافية ، يقول هوجارث: " إن مما قوى عزمه هذا هو كونه " هاويا للتطبيب مستعدا لتحمل المشاق" [٢] .

حينما انفصل داوتي عن قافلة الحج بعد انتهاء الموسم وقرر الاستمرار في البقاء مع البدو الذين تعرف عليهم أثناء إقامته في مدائن صالح ، من الواضح أنه بذل لهم خدماته في العلاج منذ رافقهم ؛ لأنه في إحدى المرات ذكر بأن صديقه الشيخ زيد -الذي وافق على أن يرافق خليل (داوتي) قبيلته في ترحالها- رأى في خبرة هذا الحكيم في التطعيم والعلاج بديلا لأخذ نقود منه نظير ضيافته مدة طويلة وتوفير كل ما يلزمه من طعام وشراب ومأوى وحماية وأخذه إلى الأماكن التي يريد رؤيتها [٣] . ولكن يظهر أن ذلك

(١) Ibid, 1/120.

(٢) Hogarth, Doughty's Life, p . 51.

(٣) Doughty, 1/149.

(تقديم خدماته العلاجية والتطعيم) ظل في نطاق ضيق في البداية ، فها هو بعد عدة أشهر من التنقل معهم في الصحراء والإقامة في عدة أماكن والاحتكاك مع غيرهم من البدو ،يقول " إنه يود لو يمارس مهنة التطعيم والعلاج كما ينبغي في مجتمع البدو".

ويؤكد داوتي على ذلك بأنه رغم حاجة هؤلاء الناس الماسة للتطعيم والعلاج إلا أن إقبالهم عليه كان ضعيفا ، وحسب عبارته: " القليل من الرجال والنساء كانوا يراجعون الحكيم ، والآباء والأمهات لا يحضرون أطفالهم ليراهم الحكيم ، ولم يزره أحد من الناس - خارج نطاق أسرة الشيخ زيد- إلا نادراً "[١] .

ويعلل داوتي ذلك بأمرين :

أولاً : عدم القناعة أو الاستعداد لدى هؤلاء الناس بدفع مبلغ مادي.

ثانياً : ظاهرة اللجوء إلى التوكل الكامل على الله.

فيما يخص الأمر الأول وهو ما ذكره عن رفضهم العلاج إذا عرفوا أنهم سيدفعون مبلغاً مقابل ذلك ، سنلاحظ أن هذه الناحية قاسم مشترك في كل المناطق التي زارها داوتي فهو -كما سنرى- يكرر ذكرهذا السبب دائما ليصم العرب وينعتهم بأنهم بخلاء بالمال وأنهم يفضلون أن يبقوا مرضى ولا يهمهم أن تزول عللهم على أن يدفعوا للحكيم مالاً مقابل خدماته الطبية. هنا مع البدو في الصحراء يقول إنهم يأتون إليه ولكن ما أن يعلم أحد منهم بأن عليه أن يدفع ثمناً حتى يتراجعوا.

ولكني أعتقد أن داوتي يبالغ في ذلك ويعمم على الجميع ، فهو إن صح من بعض الأفراد فلا ينطبق على الكل ؛ لأننا نجده هو نفسه في مواضع أخرى يذكر أن أناساً دفعوا له مبالغ نقدية وأن هذا ساعده في شراء بعض الحاجيات ، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى ألاحظ دائما أن داوتي يتغافل عن وسائل دفع أخرى من قبل العرب واضحة وملموسة سواء

---

(١) Ibid , 1/197.

كانوا في البادية أو في المدن مقابل خدماته في المجال الصحي(استشارات ، تطعيم ، علاج أو وصف علاج تركيب أدوية الخ) .

وسائل الدفع هذه تتمثل في عدة أمور أساسية أهمها ضيافتهم له ، وقد ذكر هو نفسه حينما غادر دمشق وليس معه إلا ثلاثة عشر جنيها في رحلة مجهولة لا يعلم كم ستدوم إلى صحراء ومناطق ليس فيها فنادق أو مطاعم ، بأن ضيافة العرب - التي عرفها وجربها في صحراء سيناء وجنوب الأردن- ستكون رافدا أساسياً ثانياً (مع الاشتغال بالتطبيب) يعتمد عليه في معيشته. وهذا هو الواقع ، ففي الحقيقة لم يبخل عليه العرب بكل أنواع الضيافة من مأكل ومشرب ومأوى إلخ كما يذكر هو نفسه في مواطن متعددة من كتابه[١].

الأمر الثاني ، الحماية التي وفرها له هؤلاء العرب المسلمون رغم كونه أجنبيا مخالفا لهم في الدين ويتبجح بهذه المخالفة أينما حل. فلولا هذه الحماية لما تمكن من قطع مسافات طويلة واجتياز مجاهل كثيرة في الصحراء والواحات والمدن والقرى في تطواف استمر مدة واحد عشرين شهراً.

وقد جاءت هذه الحماية في أشكال عدة ، فهي أساسا نابعة من طباع العرب وأخلاقهم في إكرام الضيف والالتزام بحمايته ، وتأتي أيضاً في شكل علاقات " صداقة " و "رفقة" عقدها داوتي مع أفراد عدة لهم نفوذ سواء في الصحراء مع البادية أو في المدن وكرر ذكرهم والإشادة بهم. وقد كان لهذا النوع من العلاقات دور بارز لا ينكره داوتي نفسه في إنقاذه من مواقف خطيرة على حياته وأيضاً في تسهيل أمور كثيرة له أثناء جولته ما كانت لتتم لولا تعاطف أفراد هنا وهناك معه.

---

(١) لم يخل موطن في كتاب داوتي تحدث فيه عن إقامته في مكان ما (سواء في البادية أو الحاضرة) من ذكر أنواع الضيافة والإكرام التي قوبل بها على كافة المستويات لدى العرب وإشادته بذلك واعتبار هذه الضيافة مصدرا أساسيا لحياته خلال تلك الرحلة ، خاصة في ظل ندرة المال لديه.

الأمر الثالث، إرشاده إلى الطرق ومواقع الآثار والأماكن التي كان يبحث ويسأل عنها وتزويده بالكثيرمن المعلومات والملاحظات التي يزخر بها كتابه. ولاشك أن هذا جانب مهم جداً بل إنه هو أساس رحلته الذي لولاه لما تمكن من تدوين ما كتبه عن شبه الجزيرة وأهلها.

والمهم في ذكر الجوانب الثلاثة السابقة فيما يخص دفع مقابل نقدي نظير علاجاته ، أن القصد هو بيان تجاهل داوتي لما قابله العرب به نظير خدماته في المجال الصحي بما هو أكبر بكثير مما قدمه لهم ، ومع ذلك فقد دأب على عدم اعتبار هذه الأمور وعلى التركيز دائما على أنهم لا يدفعون له نقداً. وهناك ناحية أخرى أرى أنها كانت سبباً رئيساً في ندرة من يدفع له مبلغا مادياً ، ألا وهي ندرة النقود في أيدي الناس في ذلك الزمن وخاصة في البادية بشكل أوضح من المدن. فالناس في تلك الأيام كانوا لا يزالون يتعاملون إلى حد كبير بأشياء عينية من ملابس وحيوانات وأطعمة وخلافه أساساً لتبادل المنافع والخدمات وقليلا ما تتوافر النقود بأيديهم ، كما أن الأكثرية كانوا فقراء معدمين يعيش الواحد منهم أحيانا شهورا أو سنوات لم ير نقودا ولم يتعامل بها إلا نادراً.

ولأن داوتي قد جاء من مجتمعات أوربية تخطت هذه المرحلة واعتادت دفع أثمان نقدية مادية لكل أنواع الخدمات ويتوافر لها من الرخاء المادي مالم يكن متوافراً لأهل المناطق العربية التي زارها، فقد كانت عقليته لا تفهم إلا دفع ثمن مادي لكل خدمة ، وقد كانت هذه ولاشك إحدى الصدمات أو الفوارق الحضارية التي واجهها في تعامله مع العرب وأحد مصادر أحكامه السلبية ضدهم. ومما يدعم ذلك (أي أن وسائل العرب في الدفع قد تختلف عما ألفه في أوربا) ، أنه يذكر عرضا في موضع آخر بأن البعض إن لم يدفع في المرة الأولى فإنه في المرة الثانية يحضر للحكيم هدية صغيرة عبارة عن قليل من الأرز أو إناء فيه شيء من حليب الإبل أو الغنم ، وهذا بلا شك شكل من أشكال الدفع وان لم يعترف بذلك صراحة[١] .

---

(١) Doughty, 1/299.

وقد ذكر أحد الباحثين أن العرب الذين كان يمر عليهم داوتي ويفحصهم ويعطيهم من أدويته ،يشركونه معهم في أي شيء فيعطونه من الزاد مهما كان قليلا ، كما أن أحد الأشخاص بعد ما عالجه داوتي ولم يكن لديه ما يدفعه له خلع ثوبه ليعطيه "للحكيم" ولكن داوتي حينما لاحظ أنه لا يملك غير ثوبه ذاك سامحه بقيمة الدواء[1]. والمهم هنا أن العرب الذين تعامل معهم كانوا يدفعون له مقابلا بوسائلهم المتيسرة لديهم ، والذي أستنتجه من كل هذا أن داوتي يفترض أن هذه الأشياء العينية لا تكفي وأنه يعدها ضيافة أو هدية فقط ، ويريد من سائر الناس أن يدفعوا له نقودا مقابل خدماته العلاجية ، ولذا يكرر نقدهم في هذه الناحية.

أما فيما يخص الأمر الثاني وهو اللجوء إلى التوكل والاعتماد على الله ، فقد فسره هو دائماً على أنه تهرب من الدفع يلجأ إليه العرب ، بل واستنتج من ذلك أنه مرتبط بالخمول والكسل الذي يتميز به العرب على حد زعمه. والواقع أن داوتي لا يدرك مقدار قوة إيمان هؤلاء الناس بالله وصدق اعتمادهم عليه خاصة في أمور الصحة والمرض والحياة والموت والقدر إلخ ، ولم يدرك عمق ما يقولون حينما يرددون عليه عبارات مثل: " نحن اتكالنا على الله وحده " و " لن يحدث شيء إلا بإرادة الله " كما نقلها هو نصا على سبيل التهكم[2] . والغريب أنه في مكان آخر يذكر بأنهم لا يرون مانعاً دينيّاً في مراجعة الحكيم وأنهم يكلون الأمر إلى الله فقط حينما لا يقدر " الحكيم خليل " على فعل شيء (مثل حالات العمى في أمراض العيون) يرددون قولهم " الحكيم الله وهو الشافي[3] .

لم يدرك داوتي قوة تأثير العقيدة والدين الإسلامي على الناس في هذه المناطق بالذات ، وإن كان البعض لا شك يبالغ في مسألة " التوكل" إلى حد " التواكل" بترك

(١) Freeth and Winstone, op., cit., pp. 234 , 239.

(٢) Doughty, 1/197.

(٣) Ibid, 1/299.

الأسباب وهو ما لم يقصده دين الإسلام على الإطلاق ، بل أمر بالأخذ بالأسباب الشافية ، وعلى كل فإن مناقشة هذا الموضوع وما يرتبط به هو طبعاً خارج إطار هذا البحث. إنما المراد هنا نقض دعوى داوتي بأن مسألة التوكل على الله والاعتماد عليه تقال فقط للهروب من الدفع ، والمراد أيضاً إثبات أن التوكل على الله جزء أساس من عقيدة المسلمين.

أما محاولته ربط التوكل على الله بالخمول والكسل الذي هو طبع أساس في العرب كما يراه هذا الرحالة[1] فإن هذا أيضاً جزء من عنصريته وتحامله في مواضع متعددة عليهم وإلا فإن الواقع غير ذلك حيث قد لاحظ هو نفسه شدة بأسهم وقوة تحملهم للشدائد ومواجهتهم لظروفهم الصحراوية الصعبة حسب إمكاناتهم البسيطة هذه الأمور شهدها ورآها بنفسه وهي تدل على عكس زعمه.

ثم إن ما ذكره داوتي من ضعف إقبال الناس على علاجاته توصلت بعد تتبع كتابته في هذا المجال إلى أن ندرة الإقبال عليه كانت في البداية فقط (الأشهر الأولى) ، بدليل أنه يناقض نفسه بنفسه ، ففي مواضع أخرى يقول عن مراجعتهم له : "يأتي الناس إلى خليل في خيمته لأخذ أدوية من عنده وهو لا يفرق بينهم في التعامل، بل يعطيهم مما لديه إلخ"[2].

واضح من هذا أن الناس اقتنعوا به شيئاً فشيئاً مع مضي الزمن وتزايد الإقبال عليه باعترافه ، فهو يشير إلى أن خيمة الحكيم صارت كأنها عيادة يراجعه الناس فيها.

من ناحية أخرى لاحظ داوتي من خلال تجواله أن الناس كانوا على دراية ولهم خبرة بما يسمى: " التطعيم أو اللقاح " فقد عرفوا في تلك المنطقة شخصين جاءا قبل داوتي بسنوات. يقول في هذا : " لم أكن أول مسيحي يقوم بالتطعيم في هذه المناطق ، فهم يقولون لي بأنه قد زارهم شخص يدعى " أبو فارس " عربي من نصارى الشام قبل سنوات عديدة وكانت مهنته التطعيم وفعلا قام بتطعيم ناس كثيرين خاصة ضد الجدري وذهب بعد

---

(١) Ibid, 1/197.

(٢) Ibid, 1/299.

ذلك إلى حائل ثم القصيم. كذلك جاء بعده بحقبة قصيرة عربي آخر من نصارى الشام إسمه "سليمان " إلا أن الناس كانوا يدعونه بنفس كنية الأول " أبو فارس " لأنه كان يقوم بنفس المهنة وهي التطعيم. وبمجيء داوتي أصبح الشخص الثالث الذي يقوم بهذه المهمة لديهم ،يقول داوتي: "ومن هنا صار لدى الناس اعتقاد بأن التطعيم يأتي من الشمال ومن النصارى فقط!!" [١] .

أما الأمراض والعلل التي يشكو منها الناس وتحدث عنها داوتي في تلك المنطقة، فأهمها:

١ - الجدري . ٢- أمراض العيون . ٣- أمراض الكبد . ٤ - الحكة والحساسية . ٥ - الحمى . ٦ - السكنى بالجان ، والنفس . وفي هذا المجال يذكر بأن بعض الرجال قالوا له بأنهم مسحورون بواسطة نساء . ٧ - الريح أو الأرياح ، يقول داوتي وهذا الاسم يلاحظ أنه يطلق على كل مرض مجهول لديهم سواء من الأمراض السابق ذكرها أو من غيرها[٢] .

أما طريقة الناس في التعامل مع هذه الأمراض وعلاجها فمن خلال أمور متعددة ، أبرزها:

١ - الرقية عن طريق القراءة على المريض (قراءة القرآن) ، تستعمل لأمراض متعددة كما هو متعارف عليه في أرجاء العالم الإسلامي ولها أصل من الدين. وقد لاحظ داوتي أن البدو يقرأون على المريض وخاصة المجنون أو المسكون بجني آيات من القرأن[٣] .

٢ - الحجامة ، والغريب أن من يقوم بها ليس الرجال فقط بل وبعض النساء أيضاً، فهذه (حرفة) وهي زوجة الشيخ زيد صاحب داوتي تتقن هذه المهنة إضافة إلى أساليب أخرى في العلاج سيأتي ذكرها[٤].

٣ - قراءة الكف ، يذكر داوتي بأن البدو أحياناً يعطونه أيديهم طالبين بإلحاح أن

---

(١) Ibid, 1/295.

(٢) Ibid, 1/297-301.

(٣) Ibid, 1/301.

(٤) Ibid, 1/297.

يقرأ لهم الكفين ليخبرهم بحظوظهم معتقدين فيه بما أنه حكيم فهو بالضرورة يعرف قراءة الكف ، ولكنه ليس كذلك في الواقع ولذا فهو لا يقرأ لهم [(١)] .

٤ - الأعشاب الطبيعية والعقاقير المستخلصة منها ، ويذكر بأن أهل هذه المناطق غالباً ما يشترون هذه الأشياء من المدينة المنورة بوصفها أقرب مدينة كبيرة تتوافر فيها السلع وذلك مثل الحلتيت والحبة السوداء والصمغ (وهو مادة لزجة تستخرج من جذور بعض النباتات يستعمل لعلاج عدة علل أهمها التشنج) وأنواع العلك وما إليها. وهذه الطريقة أيضاً لاحظ داوتي أن النساء يبرزن فيها بشكل أكبر من الرجال ؛ لأنها كما يرى تدخل في باب المتاجرة (البيع والشراء) التي يتفرغن لها أكثر من الرجال.

حرفة أيضاً زوجة مضيفه من أبرز النساء المتعاملة بهذه الطريقة ، وقد طلبت مرة من الحكيم وبعض النسوة معها أن يفتح لهن صندوق أدويته ليرين نوع الأدوية التي يحملها معه ، وفعلا قام داوتي بذلك فأخذت النسوة يتأملن الأدوية ويلمسنها بأيديهن واحدا بعد آخر ثم يعدنها إلى الصندوق وهن يهززن رؤوسهن معترفات بأنها أدوية غير معروفة لهن وغريبة ولكنهن قلن للحكيم إن بعضها يشبه من حيث الرائحة بعض الأعشاب التي لديهن مثل الحلتيت. ولعل ما لفت نظرهن وكان محل تعجب واستغراب هو قيام داوتي بتحضير أدوية عن طريق تفاعل بعض الكيماويات ومن ثم يبدأ السائل الذي هو مثل الماء يغلي ويزبد بنفسه ، ومثار الدهشة هنا كما ذكر عنهن هو غليان الماء بدون نار وهو شيء غريب جداً هنا ولا يخطر بالبال[(٢)] .

يذكرهوجارث أن داوتي قال في رسالة له بأنه عندما قرر البقاء أخذ أيضاً زيادة أدوية ومستحضرات مع تعليمات كيفية استعمالها من طبيب قافلة الحج قبل أن يتركها

(١) Ibid, 1/301.
(٢) Ibid, 1/297-298.

وهي في طريق العودة إلى دمشق عند مرورها بمدائن صالح[١] . ولكن مشكلة داوتي التي واجهها في بلاد العرب هي الحفاظ على الأدوية والمستحضرات وأهم الصعوبات كما يقول هي الشمس الحارة وعدم وجود حافظات خاصة ثم إنه عند تحضيرأي مركب يواجه مشكلة هبوب الرياح المتكرر ومعها حبات الرمال المزعجة وندرة القوارير الخاصة بتفريغ الأدوية السائلة إلخ ما هنالك من صعوبات في تلك البيئة ، ولهذا يذكر بأنه يحاول دائماً الإبقاء على الضروري من الإسعافات الأولية ويركب بعض الأدوية في حينها عند الحاجة[٢] .

٥ - تعليق الاحجبة والتمائم (جمع حجاب وتميمة) ، وهذه الطريقة كما لاحظ داوتي هي السائدة أكثر من غيرها وهي التي سوقها رائجة حتى أنه يقول: " إنه قل أن يوجد طفل ليس في عنقه حجاب أو تميمة ، بل وحتى بعض الحيوانات " حيث قيل له إنها تقي من الحسد[٣] .

والأحجبة أكثر شيء تضايق منه داوتي وساهم في عدم إقبال الناس على علاجاته ، فقد رأى أن كثيراً من الناس يفضلونها على التداوي لدى الحكيم واستعمال أدويته خاصة إذا كانوا سيدفعون له مبلغاً من المال ، رغم أنهم حسب ما لاحظ لا يترددون في دفع مبلغ قيمة للحجاب!! يقول أيضاً " إنهم يدفعون قيمة الحجاب عن طيب خاطر وإن الشخص

---

(١) Hogarth, The Penetration of Arabia, op., cit., p. 272.

(٢) Doughty, 1/299-300.

(٣) الحجاب : مأخوذ من لفظة حجب أي منع والجمع حجب (بضم الحاء والجيم). قال في المنجد: وكل ما احتجب به هو حرز يكتب فيه شيء (غالباً من آيات قرآنية) ويلبس وقاية لصاحبه في زعمهم من تأثير السلاح أو العين أو غير ذلك.

ينظر: معلوف ، لويس . المنجد في اللغة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦٩م ، ص١١٨.

التميمة: هي خرزة أو ما يشبهها يعلقها بعض الناس وخاصة في البادية على رقاب أولادهم لدفع العين والحسد.

ينظر: الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح -، بيروت : دار الكتاب العربي ١٩٧٩م ، ص٧٩.

مستعد للدفع ولو كان آخر قرش في محفظته"[١] . كما أن الأحجبة التي لاحظها أنواع، فمنها حسب تسمية داوتي أحجبة "الناس المشهورين " أي التي كتبها أناس لهم شهرة مثل الشيوخ الكبار المختصين بالعلوم الدينية ، إذ لديهم قدرة على إقناع الناس ولهم قبول أكثر من غيرهم ، وهؤلاء أحجبتهم نادر الحصول عليها ومكلفة جداً.

وعرف داوتي من الناس أيضاً أن أشخاصاً من المغاربة الذين يمرون في طريقهم للحج ومن المقيمين في منطقة المدينة المنورة اشتهروا بكتابة الأحجبة بحيث أصبحوا أحسن من يكتبها في تلك المناطق التي مر بها داوتي نظراً لكونها في طريق الحج ذهاباً وإياباً ولقربها من المدينة. يذكر داوتي في مجال شيوع التداوي بهذه الأحجبة بأن لدى سائر الناس اعتقاداً قوياً بها من حيث إنها وقاية من العين والحسد وعلاج للأمراض ، بل إنها في نظرهم تقي من أشد الأخطار[٢] .

واللافت للنظر في اهتمام داوتي بموضوع الأحجبة والتمائم ودورها أثناء كتابته عن الأوضاع الصحية وطريقة التداوي ، أنه يذكر ناحيتين:

فهو من ناحية يقارنها بما كان موجوداً في أوربا في القرون الوسطى واستمر لحقبة طويلة من كتابة أحجبة ووضع تمائم عليها كتابات دينية ،كان ذلك سائدا بين المسيحيين وبلغ من الكثرة والشهرة أن اليهود كانوا يقومون بمهمة الكتابة للمسيحيين بحكم كثرة المتعلمين منهم آنذاك واستخدامها وسيلة للتجارة.

الناحية الثانية ، أنه رغم معرفة الناس بأنه نصراني فإن بعضهم طلب منه أن يكتب لهم أحجبة وتمائم ويقول إنهم يبدون مستعدين لدفع مبالغ إذا كتب لهم الحكيم أكثر مما لو أعطاهم أدوية وطلب مقابلها ثمنا !! بل إنه يدعي أنه "كان بإمكانه أن يثري من هذا

(١) Doughty, 1/301.

(٢) Doughty, 1/300-301.

العمل ما داموا يريدونه ويفضلونه على الأدوية الحديثة" ، ويقول إنهم يستغربون رفضه القيام بهذه الخدمة [١] .

واضح من استفاضة داوتي في مناقشة موضوع الأحجبة والتمائم أنه كان الأسلوب السائد لدى معظم الناس في التعامل مع الأمراض والعلل للوقاية أو التداوي منها أكثر من اعتمادهم على الأعشاب وما إليها من أدوية لديهم ، أما الطب الحديث الذي حاول داوتي تعريفهم عليه فكان غير معروف إلا على نطاق ضيق جداً قد لا يتعدى التطعيم (الذي لم تتعد معرفتهم به عدة سنوات) وكان في مناسبات الأوبئة الكبرى مثل الجدري والكوليرا وما إليها.

بالنسبة لنا نحن المسلمين فإن تجاوز الرقية الشرعية بتوسع الناس في هذا عن طريق الاعتماد على الأحجبة والتمائم والركون إليها ، بما يحصل في هذه الأحجبة والتمائم من شركيات وجوانب تشوب العقيدة الصافية أمر شاع لدى البعض من الناس ، وهو ما حذر منه الشرع المطهر ، ولكن مناقشة هذه النقطة والاستفاضة فيها أمر خارج إطار هذا البحث.

أما بالنسبة لشخص مثل داوتي فقد نظر إليها على أنها تحد بشكل كبير من وسيلة رزقه وهي التطبيب وبيع وصفات العلاج والأدوية التي يقوم بتحضيرها ويعتمد عليها أثناء جولته في شبه الجزيرة العربية . كان واضحاً من أسلوب داوتي مرارة الحرمان من مصدر رزق حقيقي حينما واجه انتشار هذه الأنواع من التطبيب والعلاج وقبولها لدى الناس بشكل أساس مما كان يشكل منافسة قوية له.

٦ - بعض الطرق والأساليب التي اعتبرها داوتي غريبة ولكنها مستعملة لدى العرب في تلك المناطق ، فقد لاحظ أنهم يعطون المريض لحم النسور الميتة، "جيف النسور"، كما أنه شاهد امرأة تخلط روث الحمار مع الماء في وعاء وتعطي هذا الشراب للمريض مع

---

(١) Ibid, 1/301.

شيء من الحليب ، ولا يعلق على ذلك بأكثر من استغرابه لتلك الأساليب التي يعتقدون أن فيها شفاء[١].

ولكن واضح أن هذه الأساليب وأمثالها هي نتاج البيئة الصحراوية والحياة الصعبة وخاصة في تلك الأيام ، ونحن بأنفسنا كنا نسمع إلى وقت قريب أن بعض الناس وخاصة في البادية كانوا يستعملون بول الإبل مثلا لعلاج بعض الأمراض .

لعل من أبرز ما لاحظه داوتي في حقبة تطوافه هذه في شمال غرب شبه الجزيرة العربية هو ظاهرة قيام النساء بمهنة التطبيب بشكل أكثر من الرجال ، فهن يقمن بدور رئيس في العلاج حسب وسائلهن وإمكاناتهن المتوافرة. لم يذكر لنا داوتي تفسيره لهذه الظاهرة ، ولكن الذي يتضح لي من استقراء ما ذكره - وما هو معروف - عن طبيعة الحياة الاجتماعية والأسرية وتفاعلاتها في البادية ، ومن ملاحظة ظروف موقعها على طرق الحج وطبيعة الحياة البدوية التي تتيح عادة مساحة من الحرية للمرأة بحكم الضرورة لتمارس أدوارا لا تمارسها المرأة في المدن . كذلك سهولة التواصل التجاري مع منطقة مهمة وقريبة (منطقة المدينة المنورة) إضافة إلى انشغال الرجال بأعمال أخرى مثل الغارات وصد اعتداءات القبائل ، هذه الظروف وما إليها شكلت في نظري أساساً لبروز ظاهرة التطبيب لدى النساء بشكل أكبر وجعلته شيئاً عادياً ومقبولاً.

عرفنا من مسيرة رحلة داوتي أنه بعد تطوافه هذا بين مدائن صالح وتيماء وخيبر اتجه شرقاً إلى شمال نجد وبالذات حائل مركز حكم آل رشيد. في حائل كان يعول على قبول الأمير محمد بن رشيد له وتمكينه من ممارسة مهنته ، وأثناء إقامته القصيرة في حائل قدم نفسه للأمير وللناس على أنه حكيم يداوي الأمراض. والملاحظ أن داوتي دخل مع ابن رشيد في أحد لقاءاته في نقاش حول الأمراض وعرض أدوية ومعدات طبية وذكر للأمير أن

---

(١) Ibid, 1/298.

معه أعشاباً طبية ، ولكن الأمير كان حذراً جداً فلم يستعمل بصفة شخصية شيئاً مما عرضه داوتي أو يقبل به و إنما شاغله بالحوار والنقاش بطريقة دبلوماسية في العموميات[١] .

علم داوتي فيما بعد أن الأمير ابن رشيد كان دائماً يخشى أن يدس له السم في أي شيء ولذا كان لا يأخذ شيئاً يدخل جسمه إلا من طباخه الخاص أو من يثق به من أهله فقط. يضاف إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه في النبذة عن حياة داوتي من أن الأمير لم يرحب أصلاً بهذا الإنجليزي وتشكك في مقصده ولم يأذن له بالبقاء طويلاً في عاصمته أو أي منطقة تحت سلطته ولاحتى عبور شمال نجد للعراق تحت حمايته ، بل أعاده من حيث أتى (إلى خيبر) ولذا فلم يتعامل معه ولم يتح له أي فرصة للبقاء.

والملفت للنظر أن لقاء ابن رشيد مع داوتي الذي جرى الحديث فيه عن الطب والأدوية رغم كل ذلك كان وديا إلى حد كبير وتوسع الكلام فيه إلى مواضيع أخرى مثل العلوم بشكل عام والحديث عن الكتب مما يكشف كما أشار داوتي عن ذكاء وسعة اطلاع لدى الأمير الرشيدي. وفي نظري لعل هذا كان أيضاً إمعانا في أسلوب الدبلوماسية بمحاولة استكشاف كل ما لدى هذا الغريب الإنجليزي دون إعطائه الفرصة ليمارس مهنته.

على أن داوتي رأى أن الطابع البدوي كان يغلب على أهل حائل عموماً مع أن الأمير شخصياً تسامح معه إلى حد أنه هو الوحيد الذي دعا داوتي باسم "المسيحي" وهي الكلمة المحببة لداوتي ولم يقل النصراني مثل بقية المسلمين ، وقد سر بذلك داوتي لأن الأمير نسبه إلى المسيح.

ومن مظاهر تسامح الأمير التي لاحظها داوتي وجود بعض الأجانب الذين يعملون في التجارة ، وقد قابل أحدهم وهو إيطالي ، كما قابل يهودياً إيرانياً (قال له إنه أسلم) ويتاجر في الخيل ،إلا أن الموقف السياسي للأمير من بريطانيا وعدم قبول هذا الإنجليزي

---

(١) Ibid, 1/641-643.

دفع الأمير كما أشرنا إلى الحذر الشديد وإبعاد داوتي عن حائل مرتين[١].

الفترة الثانية من جولة داوتي هي كما أشرنا فترة انتقاله إلى القصيم (بريدة وعنيزة والخبراء والهلالية) التي تمتد من مساء ٢٨ أبريل عام ١٨٧٨م ليلة وصوله إلى بريدة حتى الخامس من يوليو من السنة نفسها تاريخ مغادرته عنيزة نهائياً (شهران وسبعة أيام).

حينما جاء داوتي إلى منطقة القصيم كانت أول محطة له ، هي بريدة كبرى مدن المنطقة ، ولكنه كما مر بنا في نبذة حياته ومسيرة رحلته لم يتمكن من البقاء فيها أكثر من يوم واحد. وفي ذلك اليوم الذي بقيه فيها نلاحظ أنه لم يرصد لنا أو يسجل معلومات أو ملاحظات عن بريدة سوى النزر اليسير جداً من مثل كونها مدينة كبيرة في وسط صحراء نجد وتجارتها رائجة من خلال ما لاحظه من كثرة البيوت والمحلات أثناء عبوره بعض شوارعها ورؤية سوقها التجاري في بضع ساعات هي كل ما سمح له به من الوقت . لذا - وهذا الذي يعنينا في هذا المجال - فإننا لا نجد في كتابته شيئاً عما نحن بصدده في هذا البحث حيث لم تتح له الفرصة لممارسة التطبيب والاطلاع على الأوضاع الصحية في هذه المدينة[٢].

بعد بريدة اتجه داوتي إلى ثاني مدن القصيم عنيزة التي لا تبعد كثيراً باتجاه الجنوب، وهناك لقي استقبالاً من نوع آخر هيأ له شيئاً من الاستقرار النسبي كما يلاحظ مما ذكره ، فقد وصل إلى عنيزة في الثلاثين من أبريل وبقي فيها حتى الخامس من يوليو (عدا فترة إبعاده المؤقت إلى الخبراء لمدة أربعة أيام مع مروره بالهلالية في طريق عودته إلى عنيزة).

أتيح لداوتي أن يقوم في عنيزة بتشخيص بعض الأمراض الشائعة ودخول بيوت

---

(١) Hogarth, Doughty's Life, pp. 73-75.

(٢) Hoharth The Penetration of Arabia, op., cit., p. 294.

وهنا يؤكد دكتور هوجارث أن داوتي لم يكتب شيئاً يذكرعن بريدة ، لأنه (أي هوجارث) أراد أن يقارن ما عند داوتي بما كتبه بلجريف عن هذه المدينة قبل داوتي ولكنه لم يجد شيئا.

الكثير من الناس من مختلف الطبقات في المجتمع وذلك لحرص الناس على ابتغاء العلاج مهما كان . هذا كله جعل داوتي يتحدث عن أوضاع أهل عنيزة بشكل موسع في المجالات الصحية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها. هذه المدة التي بقيها في عنيزة رغم ما تخللها من متاعب ونفي مؤقت كانت حسب ما ذكر عن نفسه أجمل ما في رحلته وأكثرها هدوءا واستقراراً خلال تجواله في شبه الجزيرة العربية.

وبما أن موضوعنا الأوضاع الصحية فإن المهم هنا أن نشير إلى أنه لكونه قدم نفسه على أنه حكيم يشخص الأمراض ويعالجها والناس كانوا بحاجة لذلك ، فقد لقي قبولاً من معظم شرائح المجتمع ،حتى من المتشددين الذين سمحوا لأنفسهم بأن يتداووا عند النصراني الكافر[١] .

واضح أن أسلوب الأمير في التعامل كان الهدف منه استغلال فرصة وجود هذا الغريب ليقوم بدور في تشخيص وعلاج الأمراض المتفشية في البلد خاصة الخطيرة منها ، ومن هنا قام بإضفاء الطابع المهني (معالجة الناس) على وجود هذا الغريب الإنجليزي النصراني. يؤكد ذلك ما جاء في كتاب:

Explorers Of Arabia ، "مكتشفو شبه الجزيرة العربية" حيث جاء فيه أنه كانت في عنيزة حاجة ملحة لخدمات داوتي الطبية نظرا لتفشي بعض الأوبئة ومن هنا تم إعطاؤه دكاناً في السوق [٢] .

منطقة عنيزة إذن كانت آنذاك بحاجة ماسة إلى أي نوع من المساعدة الطبية ، ولهذا كان مجيء هذا الغريب وتقديمه نفسه على أنه " طبيب " "حكيم" فرصة ثمينة ينبغي استغلالها وعدم التفريط بها ومنح أقصى قدر ممكن من المرونة في التعامل حتى مع اختلاف الدين.

(١) Doughty, 2/365-367.

(٢) Freeth and Winstone, op., cit., 256.

فالأمير زامل بن سليم أراد أن يخفف من استغراب ورفض بعض الناس لوجود هذا الأجنبي الذي يتبجح بنصرانيته بإعطاء المبرر القوي لبقائه المؤقت بالاستفادة منه في مجال العلاج بدليل توجيهه لخادمه بإيجاد محل للحكيم يمارس فيه مهنته منذ أول يوم ، ودليل وجود الحاجة الملحة لخدمات من هذا النوع إقبال الناس عليه حيث بدأوا منذ عصر ذلك اليوم بالمجيء إلى دكان الحكيم واستطلاع ما عنده في مجال تشخيص أمراضهم وسؤاله عن أدوية لها حتى قال في هذا المجال " إن بعض من يأتون إليه يتوهمون بأنهم مرضى".

فها هو داوتي يصف لنا هذه البداية أثناء حديثه عن أول يوم له في عنيزة بأنه منذ خروجه من بيت الأمير بعد ظهر أول يوم ذهب مع علي خادم الأمير إلى بيت هذا الأخير لأخذ أغراضه التي كان قد تركها عنده في الصباح ،حينما وصلا بيت علي وجدا أناساً قد أتوا ليروا هذا الحكيم ويسألوه عن علاج لعللهم وأمراضهم. وكان أحد هؤلاء هو الذي عرض على خادم الأمير إيجار دكان له كان شاغراً في شارع جانبي من السوق ، وتم الاتفاق ونقلت أمتعة داوتي مباشرة إلى ذلك المحل. ويستطرد داوتي في وصف ذلك الحدث بقوله "وعند منتصف بعد الظهر كنت أجلس في دكاني لعلاج الناس وكنت أفكر هل سأجد راحة في بلاد العرب ؟ وجاء بعض الناس وعندما أذن العصر وأخذ الجيران في الذهاب إلى المسجد عندها أغلقت دكاني وجلست بالقرب منه ...." "ومن ثم بدأ بعض الناس العائدين من المساجد بالتوقف لرؤية هذا النصراني وسؤاله عن الأدوية التي لديه..... وكانت تعليمات الأمير زامل واضحة بأن لا يضايق الحاج خليل أحد"[١] .

نستنتج من هذا ثلاث ملاحظات أساسية :

أولا : بدأ ممارسة مهنة التطبيب منذ أول يوم لإقامته في عنيزة.

ثانيا : أن ذلك كان في محل (دكان) في سوق البلد المركزي ، مما يمكن أن نطلق عليه (عيادة) بأسلوب العصرالراهن إن صح التعبير.

---

(١) Doughty, 2/366-367.

ثالثا : أن ذلك كان بإذن ودعم من الأمير وفي حمايته للحاجة الماسة.

على أي حال ، ففي بداية ممارسة داوتي للعلاج في عنيزة وعن طريقها تعرف على رجل أصبح واحدا من أهم أصدقائه في عنيزة ذلك هو الوجيه عبد الله الخنيني الذي تعرف على الحكيم خليل عصر أول يوم جلس فيه في دكانه حيث جاء إلى دكان داوتي يسأله عن علاج لأمه المريضة. ابتدأ الخنيني كما يذكر داوتي بالسؤال عما إذا كانت له معرفة بالعلاج وما إذا كان بإمكانه معالجة أمه الكبيرة في السن والمريضة ، فأجابه داوتي بالإيجاب ، وكانت هذه بداية طيبة استبشر بها داوتي فقد كان أسلوب الخنيني معه وديا للغاية وأخذ بيد داوتي (خليل) مصافحاً له وطلب منه الذهاب معه إلى بيته ليرى أمه المريضة ولاستضافته أيضاً.

يقول داوتي أنها أول مرة يرى فيها وجه امرأة من نساء العرب من الحضر أهل المدن ويقوم بمعالجتها فقد قاده الخنيني إلى غرفة في الدور الأعلى من بيته وقال لأمه " لقد أحضرت لك الحكيم يا أماه ليفحص عينيك." يقول داوتي إنها في البداية كانت تتحرج من أن يرى وجهها رجل غريب ولكنها جعلته يرى عينيها وأخذت تشكو له من صداع شديد في رأسها ملازم لمرض العينين. ورغم أن رؤيته وجه امرأة في ذلك الوقت شيء مستغرب إلا أن هذه روايته بنفسه وهو المصدر في هذا.

إن صحت روايته فقد يقال ربما أنه بالغ في كلامه أو أنه رأى عينيها فقط وليس كل وجهها ، أو أن ابنها عبد الله لكونه متسامحا أقنعها بأن ذلك لا بأس به للضرورة خاصة وأنها كبيرة السن. وهذا الاحتمال الأخيرهو الراجح عندي لأنه لو لم يكن ليسمح ويقنع أمه بذلك لما طلب من هذا الغريب مرافقته إلى بيته ولما أخذه للدور الأعلى في بيته حيث توجد أمه ، وكان اكتفى بشرح مرض أمه للحكيم وسؤاله عن وصف العلاج فقط.

والذي يعنينا في هذا المجال هو الناحية الصحية ، فإضافة إلى استقبال الناس للعلاج في

دكانه في السوق أخذ داوتي يذهب إلى البيوت ليعالج المرضى فيها ، فقد قام بداية بالكشف على عيني والدة عبد الله الخنيني وفحصها ومن ثم وصف العلاج اللازم لها. ويلاحظ أن هذا العلاج أثمر فيما بعد وكان الخنيني ممتنا لذلك نظرا لحرصه على علاج أمه الكبيرة السن ورفقه بها كما لاحظ داوتي ، وكذلك فعل آخرون كانوا يدعونه لعلاج مرضاهم في البيوت[١] .

كان التطبيب والعلاج المهنة التي مارسها أثناء إقامته شهرين وأياماً في منطقة عنيزة ، ولقد كتب داوتي عن الوضع الصحي في مواضع مختلفة خلال الفصول التي تحدث فيها عن هذا البلد إلى جانب اهتمامه بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وما إليها.

من ذلك قيامه بالكتابة عن الأمراض المتفشية وخاصة الخطيرة التي كانت منتشرة في ذلك الوقت في عموم نجد . ونظراً لظروف خط سير رحلة داوتي التي أجبرته على عدم الاستقرار في نواح أخرى من نجد فقد قصر كتابته على منطقة عنيزة وما حولها ولم يتطرق لغيرها. والدليل على أنه لا يعرف عن غيرها في نجد شيئاً أنه يرى أثناء كلامه عن مرض الجدري -كما سيأتينا- بأن العدوى لم تصل إلى المناطق التي تقع إلى الشمال من عنيزة (بعد وادي الرمة) ، هذا يؤكد في نظري أن معلومات داوتي عما هو خارج منطقة إقامته كانت معدومة ويعتمد فيها على السماع فقط لأنها إما مناطق مر بها مروراً عابراً أو مناطق لم يرها أبداً[٢].

وأهم هذه الأمراض المتفشية التي تناولها بالكتابة :

أولا : أمراض العيون ، وأهمها العمى حيث شاهد كثيراً من العميان وهي ظاهرة ملفتة للنظر وتبين له أن أكثرهم أصيبوا به في وقت لاحق من أعمارهم وليس منذ الولادة . وتشمل أيضاً مرض العشى الليلي الذي وصفه بأنه ينشأ عن نقطة بيضاء في بؤبؤ العين

(١) Ibid, 2/369-370, 410-411.

(٢) Ibid, 2/375.

تتفاقم وتكبر خاصة مع وجود مرض الجدري المعدي مما يؤدي إلى العمى الكامل وهذا حسب ما لاحظه داوتي سبب واضح لكثرة عدد مكفوفي البصر في البلد[١].

ثانيا : وباء الجدري ، وكان منتشراً بشكل ملفت للنظر في تلك الحقبة بين الكبار والصغار وإن كان انتشاره بين الأطفال أكثر. ذكر داوتي بأن الكثيرين يفقدون عينا واحدة أو العينين كلتيهما مع تشوهات في الوجه نتيجة البثور ، أو يموتون بعد مدة وجيزة. ولقد تصادف أثناء وجود داوتي في عنيزة عام ١٢٩٥ هجري/ ١٨٧٨م ميلادي أن كان هذا الوباء متفشيا فيها وقد علم من أحاديثه مع الناس أن الجدري كان قد انقطع عن البلد سبع سنوات ثم عاود الانتشار تلك السنة.

ويفسر داوتي ذلك بانتقال العدوى من الأطفال الرقيق الذين وصلوا إلى عنيزة مع قافلة الحج العائدة من مكة نهاية الموسم الذي سبق مجيئه عنيزة بأشهر قليلة . ذلك أنه جرت عادة بعض الجمالين كما عرف داوتي (وهم المسؤولون عن قوافل الجمال ونقل المسافرين وبضائع التجارة) أنهم يتاجرون بالرقيق بحيث يشترونهم من جدة ومكة ويجلبونهم للبيع في القصيم أو يأخذونهم إلى العراق ليبيعوهم هناك بمبالغ أكبر.

كان معظم هؤلاء الرقيق يحملون فيروسات أمراض مختلفة أهمها في ذلك الوقت الجدري ، وفعلا في هذه المرة انتقلت العدوى إلى أطفال عنيزة نفسها بسرعة بعد موسم الحج فمات عدد كبير منهم ، وبعبارات داوتي: " إن هؤلاء الجمالين يربحون بعض الريالات بهذه التجارة ولكن اللقاح الجديد الذي أحضروه (يقصد باللقاح هنا أطفال الرقيق المصابين بالجدري) أعاد نشر الوباء في بلدهم فخسرت عنيزة خمسمائة (٥٠٠) من أطفالها الأحرار قضوا نتيجة إصابتهم بالجدري." طبعاً هذا غير الكثيرين من الذين أصيبوا بالعدوى وشفوا من المرض أو بقوا أحياء وهم لا زالوا مرضى[٢] .

(١) Ibid, 2/374.

(٢) Ibid, 2/374-376.

واضح أن هذا الرقم المخيف (وفاة ٥٠٠ طفل) مبالغ فيه إذا ما قيس إلى عدد سكان عنيزة في ذلك الوقت الذين يقدرهم داوتي نفسه نقلا عن صديقه عبد الله الخنيني بحوالي خمسة عشر ألف نسمة [١] . إذا كنا نعرف أن إقامة داوتي لم تدم سوى شهرين وأياما فإنه يصعب التأكد من ذلك الحصر للعدد الذي توصل إليه. ولقد عثرت في مكان آخر من كتاب داوتي على رقم ثان لهذه الوفيات أقل من الخمسمائة بكثير حيث ذكر بأن وفيات الأطفال نتيجة الإصابة بالجدري وصلت تلك الأيام إلى ثلاثين حالة[٢].

وهذا الرقم (ثلاثون حالة وفاة) في نظري معقول جداً وحتى لو زاد العدد عن الثلاثين قليلاً . أما الرقم الأول (٥٠٠) فقد يكون بعض الناس ذكره لداوتي للمبالغة والتهويل وتكثير العدد حيث كان الناس متأثرون جدا ومفجوعون من هذا الوباء المستشري

---

(١) Ibid, 2/386.

يلاحظ هنا أن تقدير داوتي لعدد سكان عنيزة بخمسة عشر ألف نسمة (١٥٠٠٠) في تلك الحقبة بقي مرجعاً لمن جاء بعده ممن كتبوا عن هذه النقطة. ولكن واضح أن داوتي لم يدقق في هذا الرقم الذي ذكره له صديقه الخنيني ، فالذي يظهرلي بالمقارنة أنه رقم كبير نسبيا ، بدليل أن داوتي نفسه قدرتقديراً سريعاً (حسب ظنه - وهذه عبارته -) سكان مدينة بريدة عند مروره بها بخمسة آلاف (٥٠٠٠) نسمة فقط ، ويقول : إنه إذا أضاف القرى المحيطة حسب ما سمع من مرافقه (خادم نائب الأمير) فإن العدد لا يتجاوز الستة آلاف نسمة (٦٠٠٠) يعطي داوتي هذا التقدير لسكان بريدة دون نقاش في حين أن انطباعه عنها أنها مدينة كبيرة ، ينظر:
Doughty, 2/349-355.

وحيث من المعروف والثابت أن بريدة أكبر من عنيزة ، فإني ألاحظ أن تلك التقديرات لكل من سكان المدينتين غير دقيقة والفرق بينها كبير، كما أن داوتي لم يبق في بريدة أكثر من يوم واحد وبنى على ظنه فقط ، ولذا أشك كثيرا في إحصائه المذكور.

(٢) Doughty, 2/410.

وفي موضوع عدد وفيات الأطفال اختلط الأمر على الدكتور محمد السلمان في كتابه عن الأحوال السياسية في القصيم (سبقت الإشارة إليه) حيث ينقل عن داوتي ، فوضع الرقم : خمسة آلاف (٥٠٠٠)!!! وهذا ولا شك خطأ في النقل ، فقد يكون سهوا أو خطأ مطبعيا إذ بدلا من كتابة (٥٠٠) أضيف صفر ثالث دون انتباه. (انظر: السلمان ، ص ٣٣٠).

وكثرة مرضاه . ويذكر أن العدوى حسب ما لاحظ داوتي لم تتجاوز الوادي (وادي الرمة) إلى بريدة ، بل ولا حتى قرى النفود المحيطة بالمنطقة حسب ما سمع من الناس.

ثالثا : صداع الرأس العنيف - الصداع النصفي- وقد يكون في مقدمة الرأس ، وأول ما لاحظه داوتي في شكوى والدة عبد الله الخنيني من عينيها ووجود صداع ملازم. يرى داوتي بأن هذا الصداع يستمر مع البعض لسنوات طويلة ويؤدي حسب ما شاهده لدى بعض مرضاه في عنيزة إلى العمى خاصة مع اقترانه بشيء من أمراض العيون وهو ما يقول عنه إنه موجود لدى أكثر الناس الذين شاهدهم.

وهناك مجموعة من الأمراض الأخرى أقل خطورة ذكرها داوتي مثل حمى الواحات ، مرض الطحال ، والأمراض الجلدية بين الأطفال والرشح والزكام قال عنها إنها من الأمراض المعروفة في المنطقة حسب ما لاحظ. عن هذه الأمراض الأخيرة لا يزودنا داوتي بأي معلومات أخرى عدا عن ذكرها ولا كيف شخصها ، والذي يظهر أنها مما اعتاد الناس عليه ومعظم شكواهم منها كانت ممن يأتون إليه في دكانه ويستشيرونه أو يأخذون منه علاجاً في حينه. ومما يؤيد ذلك أنه بعد ذكرها يشير إلى أن بيوت أهل عنيزة هي عموما نظيفة جدا وتبهج النفس نظرا لطريقة تصميمها فلعله أراد بذلك الإشارة إلى إعتيادهم على التعامل مع هذه الأنواع من الأمراض التي لا تصل إلى درجة الأوبئة الخطيرة[١].

يتضح من كل ذلك إجمالاً أن حاجة الناس في عنيزة للعلاج كانت شديدة فلم يكن لديهم مانع من التعامل مع النصراني ما دام يقدم لهم هذه الخدمة ،بل إن بعضهم لم يروا حرجاً في زيارته وتبادل الحديث معه وإدخاله لبيوتهم ما دام سيعالجهم أو يعالج أي فرد من أهلهم. وأكثر من ذلك يروي داوتي أنه دخل بيوتا كثيرة في عنيزة ودعي إلى بيوت أكثر الأشخاص تعصباً لفحص حالات الجدري وعلاجها ، فقد كان بعض الناس متضايقين من

(١) Doughty, 2/374-375.

مجيئه إلى بلدهم ولا يطيقونه ولكنهم للضرورة لم يتحرجوا من دعوته لعلاج مرضاهم الذين كانوا على شفا الهلاك.

ناحية أخرى كشفت عنها كذلك ملاحظات داوتي وهي أن لدى معظم الناس ثقافة طبية إن صح لنا أن نسميها بذلك ، فهم مثلاً حسب ما يذكركانوا يعزلون المريض بالجدري لوحده ويتركونه ممداً في الظلام ويدعون أمر الاهتمام به لمن سبقت إصابته بالمرض وشفي منه حيث يكون في نظرهم محصنا من انتقال العدوى إليه بحكم أنه مر بالتجربة. لاحظ داوتي أيضاً أنهم لا يعطون المريض دواء مخافة أن يفقد بصره حسب اعتقادهم ، ويبدو أن داوتي لم يقرهم على ذلك بل كان يقوم بمباشرة فحص المرضى وعلاجهم ولكن واضح أنه كان يتفهم وجهات نظرهم ويستمع إليهم ،مع اختلاف رأيه عنهم.

أشار داوتي أيضاً إلى استغراب الناس من حرصه على الحيطة ووقاية نفسه بوضع كمامات على فمه وعدم تنفس الهواء في غرف المنازل الموبوءة (التي يفحص فيها مرضى الجدري) خوفا من العدوى ، وذكر بأنه لا يأخذ برأيهم الآخر أيضاً المتداول في أن من أخذ التطعيم ضد الجدري لا يمكن أن يعاوده المرض. بمعنى آخر فإنه يرى أن التطعيم لا يمنع العدوى طوال حياة الإنسان وإنما قد يصاب الفرد بمرض معد حتى ولو كان هذا الشخص قد أخذ حقنة التطعيم. والذي يتضح لي من مضمون كلام داوتي أن التطعيم في رأيه محدود الجدوى وهو لمدة قصيرة فقط يضعف بعدها مفعوله وتأثيره خاصة أمام الأمراض الخطيرة، وليس صحيحاً في رأيه أن التطعيم حصانة أبدية ضد الأمراض فأراد بأخذه الاحتياطات أن ينبه الناس لهذه الناحية وأنه هو نفسه أيضاً قد يعديه المرض[١] .

عرف داوتي أيضاً بوجود بعض أساليب علاج الطب الحديث قبل مجيئه إلى المنطقة، فهو مثلاً عرف بوجود مثقب العين وإن كان الناس حسب ما ذكر لا يعلقون عليه أملا ولا يثقون به ربما لأنهم لم يجربوه أو أنه لا زال جديداً. كما علم أيضاً بوجود مرهم للعيون في

(١) Ibid, 2/410.

عنيزة وصل إلى البلد من بلدة شقراء في الوشم قبل سنة من مجيء داوتي ويتداوله الناس. أما غسيل العين فيبدو أنه لم يكن معروفا في عنيزة قبل داوتي على الأقل بين عامة الناس ، فهو يذكر بشأن حرص الناس على علاج عيونهم من أمراضها أن الكثيرين من أوساط الناس والفقراء ينتظرون كل يوم على باب دكانه ويلحون عليه بطلب هذا الدواء[1].

وكان من حرصهم أيضاً أن البعض يأتون إليه قبل الذهاب لأعمالهم ويستعملون غسيل العينين الذي لديه مجانا ، فقد كان واضحا أن لديه مقداراً لا بأس به من غسيل العيون يقوم بتحضيره ويعطي منه للناس. ناحية أخرى يذكرها داوتي وهي ملاحظته أن الأدوية الإنجليزية منتشرة في سوق عنيزة ،تأتي هذه الأدوية مع قوافل التجارة المجلوبة من منطقة الخليج حيث تستورد معظم البضائع ومن ضمنها الأدوية من الهند (التي هي جزء من الإمبراطورية البريطانية في ذلك الحين). يقول إنه وصف لرجل مرة نوعاً من الدواء كان يعتقد أنه غير متوافر نظراً لكونه عرف حديثا ففوجئ بأن هذا الرجل يحضره من السوق في اليوم نفسه[2].

ناحية مهمة في الجانب الصحي في عنيزة يذكرها داوتي ، وهي أنه في بداية مدة إقامته لاحظ عدم وجود مختصين يما رسون مهنة الطب في عنيزة ، إلا أنه يذكر في فصل آخر عن (الحياة في عنيزة) بأنه دعي في يوم من الأيام إلى بيت واحد من عائلة البسام (غير أصدقائه من البسام) لمقابلة شخص عنده له إلمام بالعلاج والتطعيم ، وليس معروفاً

(١) Ibid, 2/374.

بالنسبة لمثقب أو مثاقب العيون ، عبارة داوتي حولها أنه عرف بوجودها من الناس ، واضح أنه لم يرها ولذا لم يعلق عليها بأكثر مما قيل له . وهي حسب عبارته "eye-prickers" في ترجمة القاموس : شوكة معدنية (إبرة) ، كانت تأتي من الخارج ذكرها مع المرهم". "eye-salver" يظهر أن قليلا من الناس بدأوا في استخدام هذه الإبرة لأورام العيون والأكثرية كما قال لا يعولون عليها ، ويظهر أيضاً أنها من الأدوات القديمة التي لم تعد تستعمل .

(٢) Doughty, 2/411.

هل هذا الشخص من البسام أم لا فهو لم يذكر اسمه. في هذه المقابلة بينهما عرف داوتي أن هذا الشخص كانت له رحلات إلى مختلف البلدان ،كما تحاور معه في أمور طبية تبين لداوتي من خلالها أن لدى هذا الرجل معلومات طبية لكنها متواضعة فقد كانت له قراءات جيدة في بعض الكتب ، ويقول داوتي بأنه تلقى من هذا الرجل عدة أسئلة تدل على وعي واهتمام ولكنها تظل في نظر داوتي أسئلة بسيطة وسطحية.

ويشير داوتي إلى ممارسة هذا الرجل لشيء من مهنة التطبيب في عنيزة ، فيذكر بأنه قام في حقبة سابقة بتطعيم كافة أطفال عنيزة ضد الجدري ومع ذلك مات الكثير منهم بعد هذا التطعيم. وتفسير ذلك واضح مما ذكر في موضع آخر بما أن اللقاح يستورد من الخارج فإن تعرضه للتلف أو ضعف مفعوله أو تأكسد السائل نفسه خاصة مع عدم وجود حافظات مبردة في ذلك الزمن إلخ من أمور قد تبطل مفعوله أو تحوله أحيانا إلى مادة ضارة كذلك قد يكون لقلة الخبرة في كيفية استعماله كل هذه أشياء تفسر سبب موت الكثيرين من الأطفال رغم تطعيمهم حسب ما روي لداوتي.

أما رأيه في هذا الشخص الذي قابله فهو مزيج من الإعجاب والاحتقار كما هو أسلوب داوتي في كتابته عن أي شيء أو شخص عربي فرداً أو جماعة وتلك نقطة أشرنا إليها سابقا. ففي الوقت الذي يمتدح فيه مستوى معرفة هذا الرجل الطبية وإن كانت بسيطة ويصفه بأنه رجل أمين ، بل وأكثر من ذلك يوصي داوتي وجهاء البلد (الشيوخ) ويشير عليهم بإرسال هذا الشخص ليتعلم هذا الفن من أجل المصلحة العامة ليعود فيخدم بلاده ، نجده من ناحية أخرى يستهين به ويحتقره ببعض العبارات[١].

بالنسبة للتطعيم ضد الجدري (اللقاح) في عنيزة فإضافة إلى إشارات داوتي له السابقة أثناء علاجه لمرضاه ومناقشته لهذا الرجل الذي كان يمتهن شيئاً من الطب ، فقد ذكر في موضع آخر بأنه شيء معروف ومعتاد منذ مدة طويلة. ذلك أنه علم من الأهالي

(١) Ibid, 2/402-403.

أيضاً بأن "أبا فارس" الذي سبقت الإشارة إليه في منطقة شمال غرب شبه الجزيرة قام بتطعيم مئات من الناس قبل ثلاثين عاماً من مجيء داوتي حسب تقديرهم ، رووا ذلك له في معرض حديثهم عن أن الذين تم تطعيمهم لا يصيبهم المرض كما سبقت الإشارة إلى هذا.

بعض التجار والوجهاء كانوا يحصلون على لقاح التطعيم عن طريق استيراده مع قوافل تجارتهم لاستعمالهم الخاص واستعمال أسرهم. فمثلا الوجيه عبدالله البسام صديق داوتي يذكر له أنه قد وصله التطعيم في السنة الماضية مع تجارته[1] .

وعلى أي حال ، فإن الحديث عن التطعيم ضد الجدري في هذه المنطقة وكونه معروفاً ومشهوراً على هذه الأوجه التي سبق ذكرها في تلك الأيام هو مظهر آخر من مظاهر الوعي الصحي الذي كشفت لنا عنه كتابات داوتي في هذا المجال.

يلاحظ أن ما سجله داوتي في الناحية الصحية هو رصد لجوانب متعددة منها بعين فاحصة حسب ما أتيح له، فهو مثلا يذكر لنا في أحد المواضع أنه لاحظ في عنيزة كثرة المعمرين ذوي اللحى البيضاء الذين لم يشاهدهم بهذه الكثرة في مكان آخر في بلاد العرب. وتلك ناحية تدل على ارتفاع متوسط الأعمار نتيجة الوعي الصحي في البلد وطيب الهواء فيها، على الرغم من تفشي بعض الأوبئة (الجدري مثلا) من حقبة إلى أخرى كما أشار داوتي. وهو في رصده هذا لا يغفل حتى الحالات المرضية النادرة والقليلة بحيث لا تتعدى حالة أو حالتين ، فقد أشار إلى أنه قام بعلاج ألم في عصب الوجه لواحدة من النساء[2] .

تحدث كذلك عن داء الصرع وأكد على أنه نادر حسب ما لاحظ فهو لم ير إلا حالة واحدة في عنيزة وقبلها حالة أخرى في خيبر ، وذكر السحر والمسحورين (وقالوا له إنها هنا تسمى نفس). لكن داوتي اعترف بأنه لا يعرف كيف يتصرف مع هذا النوع من المرض الذي قال عنه إنه لا يوجد في الكتب الطبية العلمية ، وهذا هو نفس موقفه من هذا النوع

(١) Ibid, 2/403 ,410.

(٢) Ibid, 2/408.

من المرض في شمال غرب شبه الجزيرة . طبعاً إضافة إلى كونه هو شخصياً ليس طبيباً متخصصاً وإنما هو متطبب ، ولذا فسر هذا النوع (السحر والنفس) على أنه "توهمات ووسواس وهذيان" حسب عبارته(١).

بعد مضي مدة على وجود داوتي في عنيزة وممارسته فحص علل الناس وعلاجهم وصلت سمعته للبلدان الأخرى في المنطقة ، فبريدة مثلا التي سبق له أن مر بها ليوم واحد أرسل أميرها رسولين من عنده ليأخذا "الحكيم" إلى هناك لمعالجة أخت الأمير بأي ثمن يطلبه مع رسالة أمان تم إرسالها إلى الأمير زامل والحكيم نفسه بأن يعود إلى عنيزة. وقد وعد أمير بريدة في هذه الرسالة أن يعطيه ثلاثين من الفضة ، ووعد بدفع أكثر إذا لم تكفه تلك النقود (وهو مبلغ يغري في ذلك الوقت) ، ومع أن داوتي كان بحاجة ماسة إلى المال إلا أنه رفض رفضاً قاطعاً العودة إلى بريدة بناء على ما حصل له عند مروره بها. يقول بأنه أجاب الرسولين : "إن كان ابن مهنا (أمير بريدة) يريد علاجي فليأت بأخته إلى هنا " ، كما أنه لم يقبل مناقشة أصدقائه في عنيزة له في هذا الموضوع لإقناعه بالذهاب ثم العودة بعد انتهاء مهمته(٢).

في قرية الخبراء الزراعية- التي نفي إليها مؤقتاً كما مر بنا في مسيرة رحلته - والتي لا تبعد كثيراً عن عنيزة إلى الغرب، جاءه بعض الناس في بيت الأمير طلباً للعلاج. بداية في بيت أمير الخبراء لقي استقبالا حسنا خاصة أن والد الأمير كان بحاجة إلى علاج عينيه ، وكان الأمير أيضاً على مستوى لا بأس به من المرونة والتسامح مع داوتي ؛ إذ قبل ضيافته في غرفة علوية ملحقة بالبيت. أوصى الأمير الحكيم بأن يعتني بعيني والده الشيخ الكبير ، يذكر داوتي بأنه قام بفحصهما وتحضير دواء قطرات للعيون كان يعطيها له صباح ومساء.

وكما حصل في عنيزة ، انتشر خبر وجود الحكيم النصراني في الخبراء وجاء بعض

---

(١) Ibid, 2/412.

(٢) Ibid, 2/408.

الناس طلباً للعلاج من " المداوي " وهو وصف أطلق عليه من قبل المزارعين هناك كما أطلقه عليه من قبل بعض البادية في شمال غرب شبه الجزيرة. قام داوتي بمعاينة البعض ورفض معاينة البعض الآخر خاصة من لم يقبلوا دفع أي مبلغ ؛ لأنه كما يقول كان يصر على ذلك، خاصة أنه في بيت الأمير وفي حمايته. وعلى كل فلم تطل إقامة داوتي هناك ولعل هذا سبب عدم وجود مشكلات له مع المعارضين لوجوده حتى عاد إلى عنيزة[١] .

في اليوم الثالث لوصوله الخبراء جاء الرجل نفسه الذي حمله إليها برسالة شفهية من الأمير زامل يطلب فيها من داوتي العودة إلى عنيزة. بعد أن استشار داوتي الأمير ووالده الشيخ وافقا ، بل وأشارا عليه بالعودة وأن يثق بزامل . يقول داوتي إنه تقديراً منه للأمير ووالده ترك غسيلاً للعين قام بتركيبه وأفرغه في قوارير وذلك من أجل استمرار علاج عيني والد الأمير[٢] .

في طريق العودة إلى عنيزة عرج به مرافقه على بلدة الهلالية الزراعية في القصيم.

يقول داوتي عن مروره بالهلالية إنه رغم ما واجهه كالعادة من مضايقات حول ديانته وتعليقات البعض وسبهم ، إلا أن معاينته السريعة لبعض المرضى ووصف العلاج لهم رغم قصر مدة إقامته (خلال ذلك النهار للراحة)، هذه الناحية أعطته نوعا من الاطمئنان وجعلت أحد المرضى يدافع عنه ، بل ويدعوه إلى بيته ويقدم لداوتي وجبة عنده قبل مواصلة سفره إلى عنيزة . يذكر داوتي بأنه قد جاء إلى بيت هذا المضيف عدد من الناس.

واضح من خلال سرده لأحداث ذلك اليوم في الهلالية أن معاينة المرضى في بيت مضيفه المحتاج لعلاجه لم تكن بالمعنى الدقيق للمعاينة بقدر ما كانت نصائح طبية سريعة يرد بها على تساؤلات من أتوا لرؤيته في إطار الأحاديث المتبادلة.

ولاشك أن وجود هذا الشخص الغريب كان شيئاً جديداً ملفتاً للنظر ، ولذا فإن

(١) Ibid, 2/439-44.

(٢) Ibid, 2/442.

أكثرمن جاءوا واضح من أحاديثهم معه أنهم جاءوا بدافع حب الاستطلاع من ناحية وحرصاً على شيء من الضيافة ولو مجرد فنجان قهوة. أما بالنسبة للأدوية فكانت معه في صندوقه الذي لا يفارقه دائماً وقد أعطى مضيفه ونفراً ممن عنده شيئاً منها ، ولقد كان ذلك كافياً لأن يتعاطف بعض الناس معه ويعملوا على إسكات الذين كانوا يسبونه أثناء خروجه من الهلالية ، كما وقف هؤلاء يودعونه عند مغادرته(١) .

هذا هو كل ما سجله لنا داوتي عن الخبراء والهلالية. معلومات بسيطة في الناحية الصحية وغيرها ، لما مر بنا من كونه لم يبق في الخبراء سوى ثلاثة أيام ، ولعل أهم ما لفت نظره أن الناس فيها من الفلاحين. نفس الشيء عن الهلالية فلا نجد عنها من جميع النواحي سوى أسطر قليلة هي كل ما سجله عنها خلال سحابة يوم واحد فقط.

ولكن ملاحظات داوتي القليلة تلك هي على أي حال إشارات رأيت أنه يستحسن ذكرها حيث إنها تتمحور حول حرص الناس على ابتغاء العلاج من ذلك الحكيم بمقدار ما سمحت به الظروف. وبناء على ذلك ففي تقديري لو أنه زار بريدة بعد انتشارأخبار معيانته للأمراض وعلاجه للكثير من الناس لوجد فيها كثيراً ممن سيقصدونه طلباً للعلاج. ومما يؤيد هذا في رأيي ما سبقت الإشارة إليه من أن أمير بريدة بعد أن سمع بممارسته للتطبيب طلبه من أميرعنيزة لعلاج أخته ووعد بإعطائه أي مبلغ يريده.

عند عودته إلى عنيزة كانت تعليمات الأمير زامل أن يؤخذ إلى مزرعة خارج السور - كما مر بنا في مسيرة رحلته - وألا يغادرها ولا يدخل البلد تلافيا للمشكلات التي حصلت في الفترة السابقة حتى موعد مغادرة قافلة تجارة السمن السنوية إلى الحجاز . زاره أصدقاؤه الخنيني والبسام واليحيى والسيوفي وأكدوا له أنهم هم الذين طلبوا من الأمير إعادته إلى عنيزة حينما علموا بطرده وطمأنوه بأنه في أمان في هذه المزرعة وأن هذا أقصى ما يمكن أن يفعلوه له في ظل معارضة قوية داخل البلد لا تسمح بدخوله إليها مرة أخرى.

(١) Ibid, 2/443-444.

أدرك داوتي حرج الموقف له وللأمير ولأصدقائه وقد بقي ثمانية عشر يوماً في هذه المزرعة قام خلالها بتكوين علاقات مودة مع العاملين فيها والبدو المجاورين وقدم لهم بعض العلاج لعلل يأتونه ليشكوا منها نظيرالحصول على خدمات وطعام وحليب من مواشي البدو . أخذ الرعاة والمحتاجون في المزارع المحيطة يأتون إليه طلباً للعلاج واتبع البعض آراءه ونصائحه في الناحية الصحية ، فمثلا من المعروف أن طبخ الجراد وأكله شيء معتاد في نجد ، يذكر داوتي في هذا المجال بأن العاملين في المزرعة توقفوا عنه حينما رأوا أن الحكيم يمتنع عن أكله ويرى بأنه غير صحي[١].

كما عرض عليه شيخ من قبيلة مطير- كان وجماعة له في زيارة لعنيزة وخيامهم تقع قريباً من تلك المزرعة - أن يرافقه إلى الشمال على أن يكون طبيبه الخاص ، ولكن داوتي حينما استشار أصدقاءه في هذا العرض أشاروا عليه بالحذر وعدم الثقة خاصة وقد قرب موعد سفر القافلة التجارية إلى الحجاز التي يرغب فيها أساساً[٢].

ورغم عزلة داوتي خارج سورعنيزة ، فإن الأمير وأصدقاءه كانوا على صلة غير مباشرة به ويرسلون له المرضى المحتاجين للفحص والعلاج مؤكدين لهم "أنهم سيجدون العناية من الحكيم خليل" (هكذا نقل له من راجعوه في المزرعة). وعن طريق هؤلاء المرضى الذين يترددون عليه كانت تأتيه أخبار البلد ويكتب بحاجياته لأصدقائه خاصة الخنيني والبسام.

ومن أبرز ملاحظاته الصحية المهمة في الأيام الأخيرة لبقائه في منطقة عنيزة أن وباء الجدري بلغ ذروته أواخر تلك الحقبة وأنه آخذ في الانحسار حسب ما سمع ممن يأتون إليه من داخل البلد فقد ذكروا له أن الإصابات بالجدري قلت بشكل ملحوظ[٣] .

زاره أصدقاؤه مرتين أو ثلاثاً خلال تلك المدة ، وفي اليوم الأخير قبل سفره مع القافلة إلى الحجاز جاءه عبد الله الخنيني وعبد الله البسام وحمد اليحي لوداعه واقترض

(١) Ibid, 2/472-473.

(٢) Ibid, 2/482-483.

(٣) Ibid, 2/272.

من الخنيني مبلغاً من المال (رده بعد عودته إلى بريطانيا بحوالة عن طريق بيروت) ، كما قام حسب ما يذكر بتوزيع أدويته عليهم حيث كان يرى أنهم أكثرمن وقف إلى جانبه ويدرك أنهم كانوا يرغبون في تقديم مساعدات وتواصل أكثر معه لولا خوفهم على سمعتهم التي لاحظ أنها تعرضت للنقد بسبب صحبتهم له[١] .

من خلال ما تقدم يلاحظ أن داوتي قام خلال إقامته بمنطقة عنيزة وكذلك الخبراء والهلالية في القصيم بالكتابة عن الأوضاع الصحية والأمراض الشائعة ودون آراءه وملاحظاته عنها كما قام بعلاج الكثير منها، وقدم نصائحه للناس الذين جاءوه يستشيرونه. ولولا ما سببه لنفسه - بتعنته وتعصبه لديانته النصرانية - من حصار ومضايقات ورفض لوجوده من قبل المتنفذين في البلد ، لولا كل ذلك لربما قدم لنا معلومات وملاحظات أكثر بكثير مما سبق ذكره ، فقد كان ينوي البقاء مدة أطول حسب مخطط رحلته وإجراء أبحاث متعددة أهمها في الجوانب الصحية التي تحدثنا عنها ، وجوانب أخرى كان يهتم بها أساساً مثل الآثار وجغرافية المنطقة وما إلى ذلك ، فقد أشارت ملاحظاته المتناثرة في كتابه إلى وضوح هذا التوجه لديه . فمثلاً كان عندما تحين له فرصة التجوال خارج البلد يقوم بإجراء أبحاث عن طبوغرافية المنطقة ووادي الرمة ، وفي إحدى المرات بحث مع أصدقائه في جولة على الخيول عن مكان قيل له إنه مركز القصيم في سالف الزمن[٢].

وعلى أي حال فقد لاحظنا في الناحية الصحية أن ما قام به الرحالة شارلز داوتي من تدوين الكثير من المعلومات والملاحظات عن المناطق التي زارها في شبه الجزيرة العربية في كتابه ، جدير بالاهتمام وزيادة دراسات وأبحاث سواء في هذا المجال أوفي غيره من مجالات - كما أشرنا في بداية البحث - حفل بها تاريخ هذه المناطق من بلادنا العزيزة في أواخر القرن الثالث عشر الهجري / النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي.

---

(١) Ibid, 2/486-487.

(٢) Ibid, 2/417.

مصادر ومراجع البحث

أ - مصادر أساسية :

١ - المصدر الأساس في هذا البحث الذي يعتمد عليه باعتباره يحتوي على المادة موضوع الدراسة هو كتاب داوتي نفسه عن رحلته إلى الجزيرة العربية :

بعنوان : Travels In Arabia Deserta, volums, land 2

Charles M. Doughty, {Random House, 1936, New York, USA}.

وقد اعتمدت من هذا الكتاب طبعة عام ١٩٣٦م التي تحتوي على مقدمة ضافية بقلم توماس إدوارد لورنس (المعروف بـ لورنس العرب) :

٢ - Hogarth, David G.,: the Life of Charles M. Doughty {Humphry Milford, 1928, London, Britain}.

٣ - Hogarth, David, G.,: The Penetration of Arabia, {Hyperion Press, Inc, 1980, Connecticut, USA}.

٤ - Freeth, Zahra and Victor Winstone, Explorers Of Arabia, From the Renaissance to the Victorian Era, {Holmes and Meier Publishers, inc., 1978, New York USA}.

٥ - Bedwill, Robin, Travelers of Arabia,

ترجمة الدكتور عبدالله آدم نصيف .- الرياض - المملكة العربية السعودية : جامعة الملك سعود ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

٦ - Assad, Thomas, J.: The Victiorian Travelers, Burton, Blunt, Doughty, {Routledge and Paul, 1964 USA}.

ب - المراجع العربية :

٧ - تيلر ، أ، ج ، ب : **الصراع على السيادة في أوربا (١٨٤٨ - ١٩١٨م)** ؛ ترجمة : كاظم نعمة ويونيل عزيز .- بغداد - العراق : وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٩٨٠م .

٨ - الزعارير ، محمد عبدالله . **إمارة آل رشيد في حائل** .- عمان - الأردن : بيسان للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧م .

٩ - السلمان ، محمد عبدالله . **الأحوال السياسية في القصيم في الدولة السعودية الثانية** .- عنيزة - القصيم - المملكة العربية السعودية : المطابع الوطنية للأوفست ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

١٠- العثيمين ، عبدالله الصالح . **تاريخ المملكة العربية السعودية** ، ج١ .- الرياض : عمادة شئون المكتبات - جامعة الملك سعود ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

١١- العثيمين ، عبدالله الصالح . **نشأة إمارة آل رشيد** .- الرياض - المملكة العربية السعودية : عمادة شئون المكتبات - جامعة الملك سعود ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

١٢- المسلم ، إبراهيم . **العقيلات** .- الرياض : دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

١٣- نورفان ، بيير . **تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر ١٨١٥- ١٩١٤م)** ؛ ترجمة جلال يحيى .- القاهرة - مصر : دار المعارف ، ١٩٨٠م .

ج - المراجع الأجنبية :

١٤- Garnett, Edward, Passages from Arabia Deserta, Jonathan Toronto, 1931,London, Britain}.

١٥- Tabachnick, Stephen, E., (Editor) : Explorations in Arabia Deserta, {University of Geogria Press, 1987, Georgia, USA}.

١٦- Trench, Richard, : Arabian Travelers, {Macmillan London Limited, (No Date), London, Britain}.

١٧- Al-Turki, Soraya and Cole, Donald P.,: Arabian Oasis City, The Transformation of Unayzah, {University of Texas Press, 1989, Austin, Texas, USA}.

الدوريات :

١٨- التاريخ والمستقبل ، العدد الثاني ، يوليو ٢٠٠٠م - القسم الإنجليزي ، **مجلة كلية الآداب** ، جامعة المنيا ، المنيا - مصر .

١٩- **العربي** ، العدد ٩٤ ، جمادى الأولى ١٣٨٦هـ / سبتمبر ١٩٦٦م ، وزارة الإعلام الكويت .

المعاجم :

٢٠- الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر . **مختار الصحاح** .- بيروت - لبنان : دار الكتاب العربي ، ١٩٧٩م .

٢١- معلوف، لويس ، الأب . **المنجد في اللغة** .- بيروت - لبنان : المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٩م .